سمير محمد

السلاحف العرجاء

www.anaweenbooks.org

anaweenbooks@gmail.com

يمنع طباعة أو تصـــوير هذه المطبـــوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف.

العنوان: السلاحف العرجاء

المؤلف: سمير محمد

المقاس: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ٢٧٦ ص

الطبعة الثانية: ٢٠٢١

© حقوق الطبع محفوظة

عناوين Books

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب – حضرموت: ٢٠٢١/٠٠٠

الإهداء

إلى زوجتي:

أهديكِ هذه الوردة من بستانكِ، فكل ما أكتبه أنتِ من تصنعينه لي.

باب الكوخ

أخذ مختار يقترب من باب الكوخ الخشبي، وقد بدأ يخفف من سرعة خطواته وهو يتلفت حوله، ثم يقوم بسحب المفتاح الذي كان ملفوفاً بحبل حول خصره، ويتدلى طرفه الذي يحمل المفتاح داخل البنطلون، كان حريصا على اتباع نفس الخطوات في كل يوم وهو عائد للمنزل بعد عودته من المدرسة، وغير بعيد عنه كان جارهم مثنّى ينظر إليه بصمت، دون أن يصدر أي حركة يسمعها مختار.

كما كان عليه أن ينتظر عودة أخته أمينة كل يوم لتناول الغداء الذي قامت أمه بتجهيزه في اليوم السابق قبل أن تعود من عملها عند الساعة الثانية ظهراً.

مسلسل يومي يسير على و تيرة واحدة في حياة أسرة صفية الثلاثية، بعد اختفاء زوجها المفاجئ دون أن يعرفوا مكانه، لكنهم متأكدون بأنه إما قد قتلوه أو اعتقلوه على خلفية الفوضى السياسية إبان مقتل الرئيس السابق، سمع حينها والدته وهي تبكي وتهمس بصوت خافت بأن زوجها إنسان بسيط لا يعرف من السياسة إلا اسمها، وأشياء أخرى ربما لا تكون سياسية.

وهو لم يكن يعرف عن أبيه الكثير سوى أنه كان يعمل بتنظيف الشوارع.

كان يتذكر بعض المشاهد وأبوه عائد وبيده مكنسة القش المهترئة، لم يستطع رغم كل هذه السنوات أن يربط بعقليته الصغيرة العلاقة بين السياسة والخيانة، ومكنسة القش.

«مختار.. مختار».

أخرجه من أفكاره صوت أخته أمينة وهي تدخل، قامت برمي حقيبتها وهي تجلس على ركبتيها مشيرة إلى بطنها مع إمالة رأسها إلى اليسار قليلاً بما يعني أنها جائعة، كان مختار قد انتهى من تسخين الطعام فقدمه لها.

طبق من إدام من السمك والخبز.

وجبة تشتهر بها عدن ويحبها كل من ذاقها.

عادت صفية والدة مختار مرهقة من عملها كعاملة تنظيف في البلدية، ومن حرارة الشمس العدنية اللاهبة.

كانت مجبرة على العمل، بعد اختفاء زوجها وقطع راتبه الضئيل دون أي أسباب، كما أنها لم تكن لتجرؤ على السؤال عن سبب هذا؛ خوفاً من أن تلحق بزوجها ويضيع ولداها.

عاصرت صفية في ثلث عمرها الأخير أحداثاً وتغييرات كبيرة لم تكن لتصدق لو قيل لها ماحدث.

أحداث سياسية ودولية وقعت، تسمع بها ولم يتغير شيء على المستوى الشخصي سوى أنها تزوجت وأنجبت وترملت، وصار لها منزل خشبي بسيط، بعد أن عاشت عمرها في العشش الشعبية بين المهمشين.

حضنت أولادها بعمق وهم نائمون وقت القيلولة قبل أن تغفو بدورها، وهي تحلم بمستقبل جميل لولديها، خصوصاً وأنها كانت حريصة على تعليمهما وتعويض ما فاتها من التعلم، رغم أنها التحقت بمدارس محو الأمية المسائية، لكنها تبقى جاهلة وأسئلة مختار تحاصرها بالاستفسار عن معاني الكلمات التي يسمعها في المدرسة أو في التلفزيون وفي كل مكان، ولا تعرف معناها مثل:

ليبرالية، اشتراكية، الاشتراكية العلمية، البرجوازية، وغيرها من المصطلحات التي تعتقد أن ولدها يهتم بها ويسجلها في دفتره.

كانت دائما ما تحذره من أن يتكلم بالسياسة أو التحدث بها مع أي شخص.

« يا بني.. السياسة مثلها مثل السم، كلاهما يقتل دون رحمة»، لكنها كانت ترى فيه ميولاً سياسية وطموحاً

كبيراً.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة بسيطة قبل أن تغفو وهي ترسم ملامح مستقبل جميل لولدها.

عاد يوماً وعلى رقبته شالٌ أحمر من المدرسة.

ظل مرتدياً لزيه المدرسي الكامل حتى جاءت أمه كي يريها إياه، وحين استفسرت منه حول هذا الشال، أجابها بكل شموخ:

ـ إنها الطلائع.

ثم قال لها بحزن وهو يشير إلى يده اليسرى:

ـ المدرّسة أخبرتني بأنه لولا إعاقة يدي اليسرى لكنت قائداً لمجموعتنا.

ـ هذه أول طريق السياسة يا ولدي.

قالتها بغضب، وهي تنظر للشال الأحمر وتلقي به بعيداً وكأنها كانت ترى حبل المشنقة يلتف على عنق والده في مكان ما، فكل مايقترب من الحزب والأنشطة المرتبطة به هو سياسة بالنسبة لها.

التقطت أمينة شال أخيها ثم ارتدته وأخذت تقلده في حركاته بطريقة مضحكة، فقام بدوره بعرقلتها وأخذ الشال منها.

حاول أن يفهم والدته بأن مديرة المدرسة هي التي طلبت منهم المشاركة وترديد الأناشيد كنشاطات مدرسية عليها علامات وليست سياسية، حينها هدأت حدة غضبها محذرة أياه كالعادة، من السياسة ذلك السم القاتل.

في أحد الأيام جاء مختار ليخبرها بأن اجتماعاً كبيراً للطلائع جرى اليوم، وجاء طلاب كثيرون من مدارس مختلفة، وبأنه رأى الرئيس بنفسه اليوم، يشبه صورته في التلفزيون، لكنه كان أسمن مما يبدو عليه.

أصرت صفية أن تتجاهل كلام ولدها حتى لا تشجعه على مواصلة الحديث في هذا الشأن، إلا أنه واصل بانتشاء كبير:

ـ تكلم الرئيس بحماس كبير، وكان يضرب بيده على الطاولة بعض الأحيان، لم أفهم كثيراً مما قال.

قطع كلامه وهو يسأل والدته مستفسراً:

ـ أمي، أمي.

التفتت إليه صامتة، فاستطرد:

ـ طريقة كلامه مختلفة عن كلامنا، لماذا؟

كانت تنظر إليه حين سألها، فرفعت بصرها إلى الأعلى وكأنها تبحث عن وسيلة ما لإفهامه قائلةً له:

ـ نعم، هو من منطقة أخرى بعيدة من عدن، وطننا به عدة مناطق ومحافظات، وكل منها تحمل لهجة مختلفة.

هز رأسه ثم أكمل حديثه وملاحظاته.

كان يتكلم بينما هي كانت قد سرحت بخيالها وأفكارها ومخاوفها بعيداً.

صوت ابنها يأتي من بعيد، وهي غارقة مع أفكارها.

لم يكن هناك شيء يقلقها أكثر من رؤيتها لمصير زوجها.

كانت دائما ما تتخيل وهم يسحبونه وبيده المقشة من الشارع ويلفقون له تهمة الخيانة والمشاركة بقلب نظام الحكم.

ـ أمي، أمي.

عاد صوت مختار وهو يناديها بصوت أعلى، ربما ناداها كثيرا قبل أن تنتبه:

ـ اليوم، تكلموا عن الرئيس السابق وقالوا إنه خائن، ماذا يعني خائن؟ أليس هو من أعطانا البيت؟

كانت عيناها ترتعشان من الخوف بعد سماع هذا الكلام، تلفتت حولها وكأن هناك من يتجسس عليهما ثم اقتربت منه وضمته لصدرها وهي تقول له:

ـ اسمع يا ولدي، هذه سياسة، وأنا أخبرتك من قبل ألا تتكلم بالسياسة، الله يخليك يا ولدي.

ابتعد مختار قليلاً كي يراها وهو يكلمها:

ـ قتلوا أبي؛ لأنه لم يتكلم بالسياسة، دعيني أصبح سياسياً حتى لا يقتلني أحد، الرئيس سياسي وكل كلامه كان في السياسة هذا اليوم، ولم يقتله أحد.

كان الجميع يحبه، ورأيت المدرسين والمدير يضحكون كثيرا بعد كلامه.

وضعت كفيها على كتفيه وقالت وهي تنظر لعينيه:

ـ الله يخليك يا ولدي، اسمع كلامي.

أنت صغير وحين تكبر افعل ما يحلو لك.

هز رأسه متفهماً لكلام أمه، وفي عينيه كان يومض تصميم عجيب، لكنه قرر ألا يحادث أمه كثيراً عن السياسة.

ليس بسبب خوفها فحسب، ولكن لأن كل استفساراته وملاحظاته كانت بلا أجوبة منها، مؤثراً في الوقت نفسه ألا يزيد من قلقها وخوفها المستمرين.

وهنا فجأة، ظهرت في خياله صورة جارهم مثنى دائم السلام وقليل الكلام.

كان يسمع بأنه عضو كبير في الحزب الاشتراكي، لهذا فقد قرر أن يقترب منه.

خارج الكوخ

انتقل مختار للثانوية بعد أن أنهى الابتدائية بتفوق في سنته الثامنة، وفق النظام التعليمي الجديد.

بدأ يتعرف إلى زملاء جدد، وطلاب لهجاتهم مختلفة.

كان يسمع الكثير من النقاشات السياسية المليئة بالمناطقية والكثير من التنابز.

لم يكن يعجبه هذا الوضع فقد تربى على احترام الجميع، كما أنه كان يسمع عبارات غريبة لأول مرة يسمعها مثل:

«أنت خادم، مهمش، غير قبيلي، بلا أصل».

أحس على الفور أن هناك عالماً جديداً دخله، ونقلة نوعية عليه أن يتعامل معها بأسلوب جديد، فكل شخص هنا يسانده أبناء منطقته.

ودائماً ما كانت تحصل الكثير من المعارك بين أبناء المناطق كأنها عصابات.

وبدأ يسمع مناطق جديدة لم يكن يسمعها في الابتدائية، أو أنه كان يسمعها كأسماء مجردة بلا أي اعتبارات أخرى.

اختاره مربي الفصل مشرفاً على الفصل.

أدرك بذكائه أن الاختيار ليس بسبب تفوقه الدراسي بحد ذاته، ولكن بسبب حياديته بين أبناء المناطق، لكونه ينتمي لطبقة مختلفة في المجتمع، فأدرك ببديهيته أنها ميزة يجب أن يستغلها بعناية، فقام بتوطيد علاقته مع معلم الفصل الذي كان يعتبره أباه الروحي، فقد استفاد منه الكثير بتوجيهاته وبإجاباته على أسئلته الكثيرة التي لم يكن يجد إجابات لها عند والدته، ثم قام بنسج علاقات جيدة مع زملائه الطلاب من كل المناطق، كي يسهل عليه قيادتهم وتوجيههم كما أخبره أستاذه.

مرّ العام الأول في الثانوية بوتيرة حسنة، وأصبح مختار مميزاً ومفضلاً لدى الكثير من المدرسين في ترتيب اللقاءات والتنظيم وقيادة الطلاب، وكذلك في الخطابة وإلقاء كلمات الصباح المتضمنة الكثير من أقوال «لينين» و «ماركس» و «إنغلز»، والكثير من كلمات الرئيس.

ما زالت والدته رغم كل هذا حزينة، بسبب نشاطاته واقترابه من السياسة لحدود كبيرة لم تألفها أبدا في المحيط حولها، لا من أقاربها أو معارفها أو حتى جيرانها، كفئات تقبع في أدنى سلم الطبقات المجتمعية، حتى جارهم مثلى القيادي الكبير في الحزب لم يكن يحدث أحداً من

الحي بالسياسة.

ذات يـوم في العطلة الصيفية، جلسـت معه بعد عودته من أحد النشاطات الصيفية الكشفية قائلة له بنبرة حزن:

ـ يا ولدي، ابتعد عن السياسة اللّٰه يرضى عليك.

اقتـرب منهـا وهو ينظـر لعينيها هـذه المرة قائـلاً كلمته الوحيدة لها كلما فتحت له موضوع السياسة:

ـ قتلوا أبي وهو لم يكن سياسياً.

ـ أعرف ما ستقوله عن الرئيس وبقية السياسيين، وجدوى الاقتراب من السياسـة كحماية، لكنك تتناسـى أن الرئيس السـابق قتلـوه بدعاوى كاذبـة، ولم ينفعه حـب الناس له ولا إنجازاته.

كانت تنظر إلى عينيه وهي تحدثه قبل أن تستطرد قائلة:

ـ سـوف تعرف السياسة وسـمها القاتل حينما تقترب منها أكثر.

سوف تفهمها لكن بعد فوات الآوان.

ثم نهضت وهي تحذره بكلمات حاولت أن تكون قوية:

ـ انظر كم مر علينا رؤسـاء وقادة خلال العشر السنوات الماضية في الشمال والجنوب، وأين مصيرهم؟

أحـس أن فـي كلمات أمه بعـض الحقيقـة، لكنه كان

بعيداً بأفكاره وخيالاته.

مازال يدور حول محيط السياسة ولم يدخل عمقها ، لهذا لم يفهم بعد كلام والدته عن السياسة ، لأنه لم يفهم السياسة.

فمادام هذا الفهم للسياسة متعذراً فإن إدراك الكلام حولها سيكون بنفس الصعوبة ، هكذا حدث نفسه أو أقنع طموحاته التي تقبع داخله كبيضة تنين هادئة وجميلة لم يكن أحد يعلم ما بداخلها.

في العام الثاني الثانوي كان مختار قد أخذ يمضي بعيداً في نشاطاته وإبراز مواهبه التنظيمية والخطابية ، وميوله الإشرافية إلى جانب ميوله القيادية.

لكن كان هناك شيء واحد يؤرقه باستمرار ، ويرى أنه يقيده ويجعله عاجزاً أمام الآخرين ، تلك الإعاقة اللعينة في يده اليسرى ، فقد ذهبت به والدته للمستشفى في كل مرة تسمع أن هناك وفداً صينياً أو روسياً أتى لعدن ، ولكن دون جدوى.

تشوه خلقي في عظام كفه جعلت الإبهام مع السبابة منحيين بشكل دائم لا يتحركان.

كان يراوده بعض الأمل حينما أخبره أحد الأطباء أنه سيتم حل مشكلته بالمستقبل بكل تأكيد ؛ في حال توفر الإمكانيات والأدوات والتي تعجز البلاد عن توفيرها

بالشكل السليم في الوقت الحالي.

لاحظ أن الشيء الجميل في نشاطاته هو أن العبارات التي كان يسمعها كشتائم عنصرية قد اختفت، وبدأ يتعرف على الكثيرين ممن هم في بداية مشوارهم السياسي في المنظمات القاعدية للحزب الاشتراكي اليمني في عدن الذين دعموه، وقاموا بمساندته بشكل ملحوظ، مما جعل الكثير من زملائه الطلاب في المدرسة يخشاه ويطلب وده.

ربما حين يشعر الجميع بأنك أعلى منهم وأقوى يسقطون في أنفسهم أية اعتبارات أخرى تربوا عليها، فالوضيع بمجرد أن يصبح قائداً فهو أشرف القوم وأعلاهم نسباً وقيمة.

ذات يوم وهو عائد لمنزله قابله جارهم مثنى وسلم عليه بحرارة، وسأله عن المدرسة وعن احتياجاته ثم قال له باهتمام:

ـ لقد وصلتني الكثير من أخبارك في المدرسة.

ثم اقترب منه وهو يربت على كتفه وسط دهشة مختار قبل أن يواصل قائلاً:

ـ أنا فخور جداً بك كجار لي، وكذلك ابن حارتي، استمر في نفس المستوى، وسأكون معك بشكل أكثر قرباً.

مع مرور الأيام توطدت علاقته بالرفيق مثنى ـ كما

طلب منه أن يناديه ـ بشكل كبير جداً، وبدأ يلمس أهمية الاقتراب من المستويات السياسية العليا، وكذلك نال رضى والدته أو على الأقل صمتها، خصوصاً بعد حصوله على بعض المكافآت والرحلات في مختلف المناطق، عرف من خلالها الكثير عن الوطن، حتى جاءته الفرصة لأن يسافر لأول مرة في حياته خارج حدود الوطن.

كانت رحلة كشفية ينظمها اتحاد طلاب اليمن في الشطرين وكانت إلى مدينة تعز.

شاهد خلالها لأول مرة مدينة جبلية، ولامس هناك وجوهاً وبيئة ثقافية مختلفة، مزيج من عبارات ماركس ولينين مع نجيب محفوظ وأنيس منصور والحلاج وسيد قطب، وإن كانت منبثقة من ذات الخلفية أو متشبعة بها، لكن مع الكثير من العبارات المغلفة وغير المباشرة.

بالإضافة إلى ذلك هناك أفكار أخرى مختلفة إسلامية، ناصرية، بعثية، وكل منها تحمل توجهات مختلفة وخلافات متشابكة، على عكس ما هو موجود جنوباً، حيث الجميع يحمل نفس الفكر والأهداف بلا خلافات -على الأقل- ظاهرياً.

لمدة شهر كامل غاص في فكرة المدينة الجبلية الساحرة.

كانت تعز وقت زيارته لها تشبه فسيفساء جميلة أفرط صانعها في نثر أجزائها حتى ازدحم بها الإطار.

بيوت متقاربة وشوارع ضيقة ومتعرجة، وكل تقود إلى نقطة واحدة، حيث «جبل صَبِر» كملاك تنام عند قدميه اللوحة الفسيفسائية كقطة سيامية بيضاء.

كان مشهد الشوارع المتعرجة والمتفاوتة بين الصعود والهبوط يشعره كأنه في قرية كارتونية يشاهدها كطفل صغير، ولا يعلم أنه سيعيشها ولو زائراً ذات يوم.

وكان أكثر ما أدهشه في المدينة هو حركة التجارة، فالازدحام كان فظيعاً إلى حد التوقف، والجميع يعمل، وقد شاهد الأطفال يعملون في ورشات السيارات والنجارة، والكل يعمل ويبيع ويشتري، وكأن المدينة خلقت لتعمل، حينما أسموها «عدينة» كتصغير لعدن واستخراج المعادن.

كان السفر لأول مرة خارج الوطن يشبه الزواج، جميلاً وغامضاً ويحتاج للتشارك.

عاد من تعز بالكثير من الأصدقاء، والقليل من الراحة الذهنية التي أصبحت تعصف بمخيلته دون أن يكتشفها بعد.

فبالنسبة لمراهق صغير يحتاج الأمر لأكثر مما يملكه هو كقادم من بيئة صغيرة جاهلة، يكون الحديث خارج إطار المعايشة اليومية ضرباً من السحر والدجل.

لهـذا ، فلم يكن يعـرف كيف يخرج أفكاره ، ولم يتربَ على هذا الترف الفكري والتنوع الفارق في جدلياته.

فـي عامه الثالـث في الثانويـة كان مختار قـد بدأ يدرك أهميـة السـلطة والنفـوذ ، على الرغـم من أنه مجـرد طالب ، لكـن أصدقـاءه فـي الكشـافة ، ورفاقـه فـي المنظمـات القاعديـة ، كانـوا يحبونـه ويعجبون بـه ، وكانـوا دائماً ما يعرضون عليه خدماتهم ، وكان كل شـخص منهم يحاول أن يكسـب الأصغر سـناً ومقاماً إلى جانبه ، كنوع من الحماية السياسية والمساندة المستقبلية ، فتعلم هو أن يرضي الجميع مادام هذا في مصلحته.

ذات يوم سأل والدته عن عملها ، وعن متاعبها ، وهل هناك ما يضايقها في عملها أم هي متعبة؟ فقالت له بحزن:

ـ التعب شـيء مقدر علينا يـا ولدي ، فنحن خلقنا من أجل التعب مقابل راحة الآخرين.

قال لها بحزم:

ـ سوف ترتاحين يا أمي.. أعدك.

لـم يقطعهمـا مما هما فيه مـن لحظات عاطفيـة مؤثرة إلا صـوت أمينـة تصـرخ بأنها جائعـة ، وتريـد أن تتعشـى وتنام ، فأمامها يوم دراسي شاق في اليوم التالي ، ومسؤوليات كبيرة.

نظرا إليها بدهشة، ثم انطلقا في موجة ضحك طويلة، لم يضحكا مثلها منذ مدة طويلة.

في ذلك المساء قبّلته أمه على جبينه قبل أن ينام وقالت له بهمس:

ـ كن حذراً يا حبيبي ولا تتهور بآرائك السياسية، حتى لو كان الجميع يملك نفس الرأي والتوجه، شاركهم بكل شيء.

بما أني لا أستطيع منعك، فافعل كل ما تريد لكن لا تفرط بالحديث عن توجهاتك السياسية أو تنحاز لجهة أو لشخص ضد آخرين.

أغمض عينيه بهدوء كعصفور صغير في ليلة ربيعية، بينما في داخله خفقان جناحي صقر يسارع للهروب من الإعصار القادم.

كان التفكير بهدوء يرهقه أكثر، لكنه يسعده في نهاية المطاف، حينما لا يظهر شيء مما بداخله على ملامحه.

مع كلام والدته البسيط والعميق نام سريعاً، لكنه اعترف لنفسه ذات يوم، بعد سنوات طويلة، بأن هذه النصيحة أفادته سياسياً بشكل كبير جداً عندما احتاجها.

أحلام تائهة

صار مختار يجني بعض الأموال مقابل خدماته المتنوعة، والتي وإن كانت قليلة، إلا أنها كانت مفيدة له شخصياً في نزهاته مع أصدقائه أو للأسرة، كما أنه صار يحصل على أشياء أكثر، من أماكن مختلفة تابعة للدولة كالتعاونيات أو في باقي المصالح.

أنهى سنته الثالثة في الثانوية محققاً ترتيباً متقدماً، وتقدماً كبيراً على المستوى الشخصي، فقد أضحى معروفاً في أوساط الكثير من السياسيين في المنظمات القاعدية واللجان الحزبية، وصار يقرأ الكثير من الكتب التي يستعيرها من مكتبة المدرسة أو من زملائه، وصار يقتبس الكثير من الكلمات والشعارات فيما يكتبه في الخطابات والشعارات.

كان يملك صوتاً عدنياً جهورياً، وصار يقلد بعض المذيعين المتميزين في التلفزيون والإذاعة، ويستحضر أداءهم عند إلقاء الخطب.

كما أنه لصغر سنه، صار بعض السياسيين من الفئة

الصغيرة يستدعيه لكي يكتب له بعض الخطابات.

كان في البداية خائفا من هذه التجربة؛ لأنه كان يعلم جهلهم وحاجتهم له، لهذا فبمجرد أن ينفرد بهم يتحولون لأطفال كبار، فكان يسألهم عن طلباتهم في الكتابة، وما الذي يرغبون به.

وقد وجد أنهم قادرون ـ بسبب الخبرة ـ على كتابة الخطب والمقالات، ولكن كانت تنقصهم الثقة بسبب جهلهم وبيئتهم القروية الريفية والبدائية رغم مناصب بعضهم المهمة، بينما هو كانت تنقصه الخبرة في كتابة خطاب سياسي، رغم امتلاكه لأدوات الكتابة.

في أحد الأيام، منحه أحد المسؤولين قارورة « فودكا « كمقابل، بعد كتابته لخطاب مهم سوف يلقيه ذلك المسؤول في لقاء حزبي مهم.

حاول أن يرفض، ليس لشيء، ولكن لأنه لم يشرب الخمر من قبل، وتربى على أن الخمر حرام في الإسلام، وكانت والدته رغم جهلها، شديدة التمسك بالتعاليم الدينية، لكن المسؤول نهره مويخا:

ـ إياك أن ترفض هدية مسؤول وقيادي حزبي مثلي، كما أن عليك أن تكون تقدمياً وأن تركل الرجعية بقدميك الحقيرتين هاتين.

كان ذلك المسؤول قد شرب الكثير من الفودكا مع القات يومها.

لم يكن يعرف ماذا يصنع بها؟ كانت المرة الأولى التي يقترب فيها من قارورة خمر، وكان قد فكر برميها، إلا أنه كان يظن أن ذلك المسؤول يراقبه.

طوال سنوات طويلة كانت والدته تحذره من الخمر، وكانت تتحدث باشمئزاز عن بعض من يشربون الخمر من الجيران أو المعارف، وكيف تدمرت حياتهم، وانتهت بهم إلى التشرد والضياع.

تذكر جارهم الرفيق مثنى، فقد شاهده في إحدى المرات يحمل قارورة مشابهة للتي معه قبل دخوله للمنزل.

لهذا، فقد مرّ عليه في منزله لأول مرة، وشرح له الأمر طالباً منه أن يأخذها.

ضحك كثيراً مثنى وقتها بجانب الباب، وطلب منه لأول مرة أن يدخل للمنزل.

كان منزلاً متواضعاً ككل بيوت المدينة التي تسبح في بحر الاشتراكية.

أعلام وصور سياسيين وميداليات وشهادات تقدير بلغات مختلفة تملأ جدران المنزل، والكثير من الكتب التي ربما لم يقرأها أحد منذ سنوات.

أخبره الرفيق مثنى وهو يصب لنفسه كوباً من الخمر بعد أن عرض على مختار واحداً لكنه رفض:

ـ الخمـر أيها الرفيق الصغير بوابة الخلود، تشـربها فتمر بك أعوام سابقة ولاحقة.

تفقد خلالها كل صلة لك بهذا الكوكب الوضيع، رغم أنك تشرب الوضاعة نفسه، أليست مفارقة مدهشة؟!

صمت قليلاً ثم استطرد وهو يقول بانتشاء:

ـ الزعيم «سـتالين» كان يحـب النبيذ الجورجي بالتوت، ذقت مرة شـيئا يشـبهه عندمـا زرت «بوخارسـت»، ولم أكن أشرب وقتها، لكن التوت جعلني أدمن الخمر.

الشيطان يضع لك الأشياء الجيدة وسط الجحيم، حتى لا تشعر بالنار وهي تحرق أصابع رجليك يا فتى.

لم يكن مختار بطبيعة الحال يفهم شيئاً من كلام الرفيق الكبيـر، لكنـه كان يجاريه بالضحك حينـاً، وبهز الرأس أحياناً.

حينهـا خطرت له فكرة أن يحادثه عن عمل والدته طالما أن الرفيـق مثنـى غارق فـي السُـكر ومنفتح بالـكلام لهذه الدرجة.

اسـتغل الوقـت المناسـب لكي يتحـدث معه، وقـد وعده

بـدوره بتلبيـة طلبـه طالما أن الوسـيط هي السـيدة الحسـناء «فودكا».

فوجـئ بسـهولة الأمر، لكنـه أدرك مفعـول الهدية، وأن أفضل الهدايا ما كان مرتبطا بالشهوة.

فـي تلـك الأيـام كان حماسـه كبيـراً، واسـتطاع إنجاز العديـد من الأمور والمشـاغل المؤجلـة، وإنجاز كل واجباته المدرسـية، وحضر الكثير من اللقـاءات والندوات حضرها مسؤولون كبار في الحزب والدولة.

أحـس بكميـة هائلـة مـن الأدرينالين تسـري في جسـده الضئيـل، كان لحمـاس القادة السياسـيين مفعـول عجيب، وكان معجبـاً بإخلاصهـم وحبهم لوطنهـم وبنائه كي يصبح قـوة عظمى كما هو الآن بالضبط؛ دولة عربية قومية تحررية تسـعى لكـي تكـون نموذجـاً تقدميـاً وقويـاً ينافـس الدول الكبـرى، وأنه لولا الصعوبات الكبيرة والخيانات السـابقة من القادة وغيرهم، لأصبح الوضع أفضل بكثير.

صار مغرماً بشـعارات الوحدة ووسائل تحقيقها، كما أنه أصبـح يضمّنها خطاباته التي يكتبها لزملائه أو للسياسـيين الـذي يطلبـون خدماتـه، أو عنـد تقديمـه لبعض اللقـاءات، وكان دائما ما يشـاهد الشـعار الرسمي للحزب الاشتراكي ذلك المتعلق بتنفيذ الخطة الخمسية وتحقيق الوحدة اليمنية،

شعار البناء والتوحد.

أي عبقرية استطاعت أن تكتب هذا الشعار العظيم؟! فلا يمكن إنشاء دولة قوية دون هذين العنصرين، تماما مثل الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا والصين أو غيرها من الدول الكبرى، حتى الرأسمالية التي استطاعت أن تتوحد وتبني نفسها، هكذا كان يرى الأمر.

بعد أسبوعين لاحقين استدعاه الرفيق مثنى لمقابلة مسؤول في الحزب الاشتراكي في الحي.

لم يطلب منه أي شيء.

كانت أشبه بجلسة تعارف ونصائح، بالأحرى، طلب منه المسؤول أن يعتبره أباً له، حيث كان معجبا بكتاباته وإلقائه، وقد توقع له مستقبلاً سياسياً كبيراً، كما نصحه بكتابة مقالات في الصحف، وأنه مستعد لمساعدته بنشرها في أحد الصحف الرسمية، وعرض عليه وظيفة في فرع الحزب الاشتراكي في المنطقة مع راتب شهري ومراعاة ظروف دراسته.

كان هذا الخبر عامل سعادة في المنزل حينما أخبر والدته به، وكانت أخته أمينة أكثر فرحاً من الجميع؛ لأنها ستحصل على وجبات أفضل وملابس أكثر، كما قالت، وهي ترقص في أرجاء الغرفة.

أصبح راتبه أكثر من راتب أمه، كما أنه لم يكن مرتبطاً بدوام والتزامات.

أحس بالزهو والفخر بنفسه وطلب من أمه أن تترك العمل وترتاح بعد التعب والشقاء الطويل، لكنها رفضت طلبه معللة رفضها بأنها لن تستطيع الجلوس في البيت، فقد تعودت على العمل، كما أنها ـ بعد مساعدة الرفيق مثنى في تحويلها لعملها الجديد ـ لم تكن تفعل شيئا أكثر من الحضور والانصراف.

ـ إن كنت تفكرين بالراتب التقاعدي فلا تحملي هماً، فلن يقطعوه، وسوف يستمرون بصرفه لك.

قال لها مختار بشفقة.

لكنها قالت له وهي تضع يدها على خده:

ـ لا أستطيع أن أبقى بلا عمل، يكفي أنهم قطعوا راتب والدك دون سبب بعد اختفائه.

اكتفى بردها هذا، وقد أدرك في قرارة نفسه أنها لم تدرك بعد أن راتبه أصبح رسمياً ومن الدولة، رغم أنه مازال طالباً، أو ربما مازالت ترى فيه ذلك الطفل الصغير.

وبعد أيام قليلة اجتمع بقيادي الحزب الاشتراكي «الأستاذ قاسم» في ورشة استعداداً لأحد النشاطات، وقام بمحادثته عن والده، وعن راتبه الذي انقطع دون أي سبب بعد

اختفائـه، وأن هنـاك أخبـاراً عن مقتله بعد اتهامـه بالخيانة، رغم أنه عامل نظافة في الشارع.

فوعده الأستاذ قاسم بأن يتحرى عن الأمر بنفسه، ووعده خيراً.

ومع تزايد المهام والنشاطات المكلف بها؛ أصبح يستعين كثيـراً بصديقه سـالم فـي بعض المشـاوير والمراسـلات، مقابـل بعـض النزهات وتذاكر السـينما، حيث أن سـالم لم تكـن لـه أي ميـول سياسـية أو تنظيميـة، بل كانـت ميوله تجاريـة بحتـة، فلقـد كان سـالم يشـتري بعض الأشـياء من عدن، ويذهب لبيعها في مسقط رأسه في القرية الحدودية مع شـمال الوطن، ويشـتري من هناك بعض الأشياء التي كانت تجلب من الشمال عن طريق التهريب لبيعها في عدن.

وقـد قام مختـار بتحذيره من مغبة هـذا العمل الذي يعتبر جريمـة في النظام، لكنه مع ذلك كان زبوناً دائما له لبعض المـواد الغذائيـة النادرة التـي تأتي من شـمال الوطن، وبعض الملابس، خصوصا لأخته أمينة.

وقـد قـام بمنحٍ سـالم مبلغاً من المال كشـراكة من أجل التجارة، مسـتغلاً حماس صديقـه التجاري، رغم إدراكه أن هذا مخالف للقوانين؛ مشترطاً على سالم كتمان الأمر وعدم إخبـار أي شـخص بهذه الشـراكة والتعاون حتـى والده، وأن

يبقى سراً بينهما، بالمقابل قام مختار بتسهيل الكثير من الأمور لشريكه، حيث قام باستخراج عضوية في الحزب كحماية له، وكذلك بطاقة توفير في أسعار المواصلات العامة التي كان يستقلها سالم حتى لا يكتشفه أحد بالمهربات.

كان العمل يسير بصورة رائعة، واستطاعا أن يجنيا الكثير من المال والأرباح الوفيرة مكنتهما من شراء سيارة صغيرة يستخدمانها للمشاوير القريبة في عدن، كما أنه اشترى تلفزيوناً ملوناً لأول مرة في منزلهم، وكانت أخته أمينة أسعد الجميع به.

لكن الحدث الأهم في ذلك العام وقع بعد عدة أسابيع، عند وصول بعض الضباط لمكان العمل لمقابلة العاملة صفية.

كاد أن يغمى عليها حينما رأتهم، فقد توقعت أن يخبروها عن مقتل ولدها أو اختفائه كما يفعلون دائماً، لكن لهجة الضابط كانت قد أراحتها وهو يسألها قائلا:

ـ هل أنت السيدة صفية؟

اندهشت حينما سمعت كلمة «السيدة»، فهي كلمة لم تسمعها قبل اسمها، ولم تكن تتوقع أن تسمعها مطلقاً وهي توجه لها، لكنها أجابت بهز رأسها بالإيجاب دون أن تستطيع

إخفاء القلق والترقب في عينيها ، لكن الضابط اقترب منها مطمئناً :

ـ لا تخافي، نريدك أن تأتي معنا لإكمال بعض الإجراءات الإدارية حول استلام راتب زوجك.

أدركت أن لولدها مختار دخل في هذا ، كان الخبر مفاجئاً لها وغير متوقع.

وقد استمرت الإجراءات بضعة أسابيع بعد ذلك في روتين ممل وقاسٍ وتوقيعات كثيرة ، لكنها كانت سعيدة في أن الحق عادٍ لأهله واعترفت الدولة ببراءة زوجها ، فلقد حصل اشتباه بالاسم مع أحد العملاء، كما أن الجميع أصبح يحترمها في المصنع بعد زيارة الضباط وطريقة كلامهم المحترمة معها ، بالرغم من كل هذا لم يخبروها عن مكان دفن زوجها إن كانوا قد دفنوه بالفعل، أو بالأحرى إن كانت هنالك بقايا جثة لدفنها.

صار لديهم ثلاثة رواتب بالإضافة إلى أنهم بعد صرف الرواتب المنقطعة لزوجها بأثر رجعي صار لديهم الكثير من المال، أكثر مما امتلكته طوال عمرها ، كما أنها أصبحت فخورة بولدها الذي قام بتحقيق الكثير و هو مازال طالباً ، فبالإضافة لراتبه الذي كان يمنحه لها ، كان يقوم بشراء الكثير من احتياجات المنزل وشراء الملابس لها

ولأختـه التـي أصبحت سـعيدة أكثر من السـابق، ولم تكن تسأله عن مصدر الأموال التي كان يصرفها على نفسه، رغم خوفها ومشـاعرها المضطربة حول السياسـة ، ولم يكن هو ليخبرها عن شـراكته بتجـارة المهربات مع صديقه سـالم؛ لأنها ستمنعه بكل قوة.

وأصبح أقاربهم يزورونهم مجدداً بعد سنوات من انقطاعهم وتخليهم عن أولادها إثر اختفاء والدهم؛ بدعوى الخوف.

كانـت هي سـعيدة بهذا التقارب الأخيـر والعودة، لكن مختـار كان يعاملهـم بجفاء كبير، علـى العكس من أمينة التي كانت سعيدة بلقاء بنات عمها وبنات عماتها اللاتي كنَّ بنفس المرحلة السنية.

الصدمة

في الفصل الثاني من السنة الأخيرة في الثانوية حصل تغير كبير في أفكار مختار، وفي البلاد بشكل عام، فقد كانت هناك تحركات ولقاءات عاجلة على المستويين القيادي والقاعدي بشكل دائم، بالإضافة إلى أنه كان يسمع الكثير من الهمسات والكلمات المبعثرة، فكان كل مافهمه هو وجود أزمة سياسية في البلاد، وخلافات بين القادة، وتضارب مناصب بين الدولة والحزب.

حينما اجتمع مع الرفيق مثنى في منزل الأخير سأله:

ـ هل ما نسمعه عن الخلافات حقيقة؟

ـ نعم يا عزيزي.

ـ لماذا؟

ـ هل تريد السبب الرسمي أم السبب الحقيقي؟

أطلق الرفيق مثنى ضحكة مجلجلة بعد سؤاله.

لم يستطع مختار أن يفهم ماعليه فعله، هل يضحك مع الرفيق أم يستمر بالأسئلة، لكن مثنى أدرك حيرة الفتى فاستطرد قائلا:

ـ هنـاك خلافات حزبية، وخلافات سياسـية، و مابينهما تكمن الحقيقية.

ثـم مـال بذقنه للإمـام وهو ينظـر في وجه مختار مباشـرة وقال بجدية:

ـ ولا تسألني أكثر من هذا؛ لأنك لن تجد إجابة.

ثـم ابتعـد وهو يصنـع في عينـه اليمنـى غمـزة أراد لها أن تكـون ذات معنى خطير، لكن مختـار تصرف ببلاهة طفل كبير وهو يستمر بطرح استفساراته قائلا:

ـ أليـس الجميع في الحزب والدولة يملكون نفس التوجه والأفكار، لم الخلافات إذن؟!

كان الرفيـق مثنى ينظر إلى أمامه حينما سـأله، وكأنه كان يفكـر.

ومختار يعلم أنه سمع السؤال ولكنه لا يريد أن يرد عليه، فاكتفى بما طرح من أسئلة، وانصرف وهو سعيد بأن أسئلته أصبحـت محيرة، وبأنه فتح وسـيلة اتصـال جديدة مع الرفيق نقلت العلاقة لمستوى أعلى من ذي قبل.

واضح جدا أن الرفيق مثنى يتدرج في تعليم مختار أبجديات السياسة، وكان يقسـو عليه حيناً ويمزح معه أحياناً، لكنه فـي كل الأحـوال كان بمثابـة والده الأيدلوجـي، إن صحت العبارة.

في أحد الأيام، سمع في مكتب الأستاذ قاسم مسؤول الحزب الاشتراكي حديثاً خاصاً بينه وبين أحد الرفاق الحزبيين.

كان هو يتصنع بأنه مشغول بكتابة أحد الخطابات ومنكب على أوراقه، لكن أذنيه كانتا تلتقطان كل الحديث.

ـ عودة القائد مهمة.

بدأ الرفيق الضيف حديثه الذي استرعى انتباه مختار.

ـ صحيح، سوف يشكل توازناً مهماً بين التيارات المتصارعة.

ـ هل تعتقد أن السبب هو كون القائد المؤسس من منطقة مختلفة عن المناطق الأخرى التي يأتي منها البقية؟!

ـ هذا أحد الأسباب.

ـ وماهي بقية الأسباب برأيك؟

ـ أعتقد إلى جانب اعتباره شوكة ميزان لتساوي كفتي الصراع، فإنهم أيضاً أعادوه من أجل مواجهة شرعية الرئيس الحالي، بشرعية القيادة والتأسيس.

ـ وإلى أين تقودنا هذه المواجهة؟

ـ أتمنى أن تكون نهايتها طبيعية مثل خروج المؤسس

سابقاً، ولكني أعتقد أن الرئيس لن يستمر طويلاً.

فعودة هذا تعني خروج ذاك.

ـ أخشى أن تتكرر أحداث سالمين، وتسبب المزيد من الشروخ في جسد الحزب والدولة.

ـ الرئيس الحالي استفاد من تجربة سلفه، فقام بتعيين الكثير من أبناء منطقته ومن يثق بهم في مناصب مهمة، واحتكر الكثير من المناصب العليا في يده، من أجل حماية نفسه.

ـ ألم يكن الأولى به أن يسهم في تعزيز مكانة الدولة وإحداث التغيير.

ـ الشيء الذي أخشاه هو التحيز المناطقي في كل مايجري، سيقودنا الوضع لكارثة إن استمر هذا الاستقطاب وهناك دول إقليمية وإمبريالية لا تريد لنا الاستقرار والبناء، وأن نستمر كدولة تقدمية.

ـ تباً لتلك الدول الإمبريالية.

قال مختار لنفسه وهو يسمع ذلك الحوار الخطير كما أسماه، شعر بالرعب من هذه المكاشفة الخطيرة بين رفيقين لا يشك مطلقا في إخلاصهما وولائهما للحزب والدولة.

عليه أن يحمي نفسه أولاً من هذه الاستقطابات الداخلية،

لايريد أن تصاب أمه عليه بالهلع إن عرفت أي شيء مما يدور، أما إذا حدث له مكروه فلن تقوم لها قائمة.

ما وصل إليه حتى الآن كان بسبب حياديته بين أبناء المناطق، ولولا هذا ما كانوا ليختاروه قائداً للفصل أو لإلقاء الخطابات، أو حتى لكتابة خطابات بعض القادة والمسؤولين الحزبيين في الدولة.

مشكلة هذه البلاد هي الولع بالبحث عن الحياد رغم علمهم أنه لايوجد محايدون.

يصنعون المشاكل ثم يبحثون عن الحياد، وحينما يملون من الحياد يبحثون عن المشاكل مجدداً ويخرجون الحياد من حلبة المصارعة إلى حين البحث عنه مجدداً.

أنهى مرحلة الثانوية بنجاح، صحيح أنه لم يكن متفوقاً كما كان في سنواته الأولى، لكنه كان سعيداً بما حصل عليه رغم مشاغله وانشغالاته المتعددة، وصار يفكر بالمرحلة القادمة المتعلقة بطموحاته الجامعية.

لكنه فضل أن يستشير الرفيق مثنى فيما سيفعله وينتظر توجيهاته.

استدعاه الرفيق مثنى لمنزله، وكأنه كان يعلم مايدور في خلد مختار.

كان الرفيق مثنى مستعداً في مقيله لجلسة قات طويلة.

جـاء مختـار، وأصر عليه مثـى بأن يتناول القـات بما أنه أصبح رجلاً بعد مرحلة الثانوية.

كانت المرة الأولى في حياته التي يمضغ فيها هذه النبتة العجيبة.

لم يكن يعرف كيف يفعل سـوى تقليد مثى أو الاستماع لإرشـاداته في كيفية المضـغ والاحتفاظ بكرة القات داخل الفـم، مع صعوبة التعامل مع اللعـاب الوفير، كانت معركة صغيرة تدور في فمه وفي انشغال يديه بقطف الأوراق.

بينما كان هو منشـغلاً بالتعامل مع القات وتكوير كرة القات في خده بيده من الخارج، طرح الرفيق

مثى عليه بعض الأفكار للمرحلة المقبلة الخاصة به.

ـ مـازال أمامـك أداء الخدمـة الوطنيـة، وبسـبب وضعك الصحي.

كان يشير بعينيه إلى يد مختار اليسرى، فقاطعه قائلاً:

ـ إن كنت تقصد الخدمة العسكرية فأنا مستعد لها.

تجاهل الرفيق حماس مختار، فاستطرد قائلا:

ـ أنـت غيـر مؤهـل للخدمة العسـكرية بسـبب يدك، ثم بسـبب كونـك وحيـد أسـرتك، هذا مـن جهة، أمـا من جهة أخرى فأنا لا أريدك عسـكرياً، سـوف تكـون خدمتك في

مجال التدريس، وأنت شاب ذكي ومتفوق وتصلح للتدريس، وبعدها سوف نرسلك للدراسة الجامعية في موسكو.

صاح مختار بفرح:

ـ صحيح؟

ـ نعم، في موسكو، نحن الآن في منتصف العام 1985م، وهي تشهد تحولات عظمى، أريدك أن تكون هناك للاستفادة القصوى، فزمن التحولات هو أفضل الأزمان للتعلم واكتساب الخبرة، لكنك قبلها بحاجة لخوض تجربة أخرى في حياتك، وأن تخرج من عدن أثناء أدائك خدمة التدريس.

ـ أين؟

سأل مختار مترقباً بحذر.

ـ في أي منطقة خارج عدن، أنا أقترح عليك مسقط رأسي في ردفان، لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن.

كان مختار صامتاً، ربما تحت تأثير القات أو المفاجآت المتتالية، فواصل الرفيق مثنى كلامه:

ـ هناك في ردفان، أريدك أن تكون كما أنت اجتماعياً ومحبوباً.

أريدك أن تصادق الجميع وتعرف الجميع، وأن تتقن لهجة المنطقة بسرعة، باختصار، أريدك أن تكون كواحد من

أهل المنطقة خلال عامي الخدمة الإلزامية.

لم يكن مختار يعرف كيف يفاتح أمه بهذا الخبر، وهي التي كانت تقلق لمجرد تأخره بضع ساعات في نفس عدن، فكيف ستتقبل نبأ انتقاله لمنطقة أخرى بعيدة؟ لكنه اندهش حينما وجد أن أمه كانت هادئة وكأنها كانت تعلم بهذا.

أخبرته أنها كانت تنتظر لحظة الابتعاد، وأنها كانت تعلم بأنها قادمة في يوم ما، فهذه سنة الحياة، وعلينا أن نكون راضين بقضاء الله، وأن مايقدره لنا فيه الخير لا في سواه.

بينما كانت أخته أمينة الوحيدة هي التي حزنت لهذا الخبر، وبكت كثيراً تلك الليلة لفراق أخيها الذي تحب، ولم يكن يبخل عليها بأي شيء منذ أن أصبح يملك المال والإمكانيات لإسعادها.

لم ينم ليلتها، وبات يفكر بالمستقبل والأحلام وبما سيقوم به في ردفان، وكانت لشوارع موسكو التي يراها في صور الأبيض والأسود في بعض الكتب والمجلات نصيب الأسد من أفكاره وتخيلاته.

أكمل إجراءات انتقاله مع قرب نهاية العطلة الصيفية، واستعد للسفر بتجهيز حاجياته، وأخبر أصدقاءه وعلى

رأسهم سالم، وحينما حان يوم السفر؛ بكت أمه كثيراً، وكذلك أمينة، لهذا فقد انصرف سريعاً حتى لا ترى دموعه.

مر الفصل الأول بصورة جيدة، مع بعض صعوبات التأقلم بين عدن ووضعه الجيد فيها، وبين قرية وسط الجبال لا توجد بها أية وسيلة يمكن أن تشعره أنه يعيش في ثمانينات القرن العشرين، مع الكثير من البعوض، والمبادئ الاشتراكية التي كانت واضحة لدى الجميع.

على العكس من عدن، الدولة هنا أصغر وأخف وزناً، فلا شيء يمكن أن يشي بدولة، باستثناء مبنى يحوي إدارات الدولة كلها، لكن الجميع يخشى الدولة ويهابها.

كان كذلك أكثر حذراً في طرح أفكاره حتى يستطلع آراء الناس، رغم أنهم هنا أكثر تشدداً من المدينة في أفكارهم.

هنا أدرك أن الأيدلوجيا أقوى مما يتصور، فما الذي يجعل هؤلاء متمسكون بدولة غير موجودة إلا في مبنيين أو ثلاثة بلا خدمات أو ترفيه.

وكان أكثر ما لفت نظره هو السلاح، فهو منتشر بشكل كبير، بالنسبة إلى فتى جاء من المدينة، فإن رؤية كل هذا السلاح كان يصيبه بالهلع.

في كل مناسبة يسمع أصوات الرصاص تلعلع في الأرجاء

ليـلاً أو نهاراً ، والجميع يحمل السـلاح فـي كل وقت، بل هو مصدر فخر واعتزاز.

مـا هـذا البون الشاسـع بين عدن والريـف، وبين الفكرة والتطبيـق؟ الفكرة خُلقـت في عدن، لكن عدن خارج دوائر الحكـم ومبانيه لم تكن اشـتراكية بشـكل كبير، عدن عاصمـة للاشـتراكية فـي هـذا الوطـن مـن غيـر أن تكون اشـتراكية في نفسـها ، وكأنها أم رؤوم منحت طفلها سبب الحياة وحرمت نفسها منه.

لهذا فقد أخذ يشغل نفسه كثيراً بالتفكير بالتناقضات، ومقارنتهـا ببعضهـا البعض، ومع مرور الوقـت، أصبح أكثر تقبـلا للأمـر، أو أن الصدمـة الأولى قد خفت آثارها ، أشـبه بمـن يرمى في البحر من علو، فتجاوز مسـألة الارتطام وصار أكثر خبرة في السباحة مع التيار والتنفس تحت الماء.

انتهى الفصل الأول سريعاً ، وكان يفضل البقاء في ردفان على العـودة إلى عدن، ولكنه اشـتاق لوالدته ولأخته، كما أنـه كان بحاجة للذهاب لكي يطمئن عليهما ، فطوال أربعة أشهر لم يتواصل معهما إلا مرتين بالهاتف، بسبب عدم وجود الهاتـف فـي المنطقة إلا فـي مركز المديريـة ، وفي مكان واحـد فقـط، كذلـك فهم لـم يكونـوا يملكـون هاتفاً في منزلهم بعدن.

كان يوم الوداع رائعاً ومميزاً، قيلت فيه الكثير من القصائد والزوامل التي تقال بهذه المناسبات من أبناء القرية والقرى المجاورة، لكل المدرسين القادمين من مناطق أخرى؛ تقديراً لهم على ماقدموه لأبنائهم.

كان الجميع يرقص ببهجة وانتشاء، ووسط الوجوه كلها، كان يبحث عن وجهٍ خاص يحمل في تعابيره أسرار أول حب في حياته.

كانت سناء تحبه كذلك.

ما زالت صغيرة.

كانت تأتي لإحضار بعض الخبز المحلي اللذيذ والشاي المميز، فوالدها هو مدير المدرسة، وأغلب المدرسين من خارج المنطقة، لهذا يجب تدبير الطعام لهم في منطقة بلا مطاعم ولا محال للتبضع سوى كشك صغير يبيع بعض المواد الغذائية المحلية.

سناء كانت هي الحاجز الذي جعله يبتعد عن السياسة طوال مدة إقامته هناك، شغلت كل تفكيره، وملكت كل حواسه.

كانت هي كل شيء، وكل ما يفكر به.

كانت ضحكتها تعبر عن زرقة السماء، بمجرد رؤيتها تنساب في أعماقه تلك البرودة المميزة التي تعصر قلب

العشـاق، كلما وقعوا في قعر تلك السـماء، وكانت عيناها هي الشمس ترسل أشـعتها لأعماق قلبه، فتحيل كل ظلماته نوراً، وتغمر كل جوانحه ببراءتها وشقاوتها الطفولية.

كان يعـرف أن نهايـة هـذا الحـب هي الموت السـريري، بسـبب اعتبـارات مناطقيـة وقبليـة، كمـا أن الفتيـات فـي المنطقـة يتزوجن في سـن مبكـرة، يصعب معهـا أن تنتظره حتى يصبح مؤهلاً للزواج من الناحية المادية والسكن، كما هـي العادات والتقاليد في عـدن، بغض النظر عن الاعتبارات الأخـرى التي هي أكبـر وأصعب من مسـألة المادة بكثير، لكـن ماحيلة العاشـق إلا أن يترك نفسـه بـلا أدني حركة، وهـو يشـاهد نفسـه يتأرجـح كلقمـة صغيـرة في فـم كهل جائع لم يعد يشـعر برغبـة بالطعام، لكنه -على كل حال ـ سيأكل هذه اللقمة اللعينة، فلعها تكون الأخيرة.

هو آخر لقمة في فم العشـق لكنه لن يكون الأخير على أية حال.

حـاول فـي كل مرة كانت تأتـي فيها لجلـب الطعام، أن يبتعـد عنها، متعللاً بأمور كثيرة، أو لاسـتلام الأطباق، ولم يعـد ينتظرها على قارعـة الطريق، وهي ذاهبة لإحضار بعض الأغراض للمنزل.

كان يفـرح لرؤيتهـا كلمـا مـرت، ويشـاهد ابتسـامتها

الخجولة.

يستحيل أن ينساها.

سوف يظل يهواها وسوف يستحضر من لحظاته معها جسداً طاهراً ينادمه، ويحكي له كم هي مذهلة حين خلقت في أعماقه إنساناً.

لمحها وسط الوجوه المجتمعة مع ملامح حزينة مرافقة لها.

كان يتمنى لو كان بجانبها يواسي حزنها، ويبثها حبه الجميل.

طوال أربعة أشهر لم يحدثها بغير الكلمات الرسمية، ولم يلمسها.

لكن قلبيهما كانا يتحدثان بالكثير.

صعد مع زملائه المدرسين المغادرين إلى عدن على ظهر الشاحنة من نوع « فيات » هابطين إلى عدن، في رحلة شاقة وسط الصخور والمنعرجات استغرقت وقتاً طويلاً أكثر مما ينبغي لمسافة ليست بعيدة، ثمانون كيلومتراً استغرقت ثلاث ساعات، وكان يدعو الله ألا تتسبب الأمطار بجريان السيول في الطريق، فتجعل السفر يتجاوز الأيام حتى زوالها، فالدولة لا تملك هناك أي شيء إلا الحضور الأمني والحزبي فقط، أما بقية الخدمات فهي منعدمة إلا في حدود ضيقة بالمركز.

طوال الطريق إلى عدن فوق ظهر الشاحنة.

كان يتأمل البيوت والوديان والصخور كل شيء.

كان يريد أن يملأ قلبه بكل شيء يخص سناء.

سيعود بعد انتهاء العطلة الفصلية لكي يراها، وسوف يخبرها عن حبه واشتياقه لها..

هكذا قال في نفسه وهو يتأرجح فوق ظهر الشاحنة التي تتمايل فوق الصخور.

كان وصوله إلى عدن بعد منتصف الليل.

حينما طرق الباب ظنت والدته أنه من زوار الفجر الأمنيين، لكن صوته وهو يناديها جعلها تطمئن، وكأنه كان يعلم خوفها وارتيابها فناداها وهو يطرق الباب، كان استقبالاً حاراً من والدته وأخته ملأته الدموع والقبلات.

لم تتركاه ينام حتى أجاب عن كل أسئلتهما، وشبعا من رؤيته، وحكى لهما عن حياته هناك، وما واجهه فيها من أحداث بحلوها ومرها، ماعدا سناء، كانت سراً لا يمكن أن يخرجه من قلبه؛ لأنها استولت عليه فأصبحت هي قلبه.

نهض في الصباح مبكراً، رغم إرهاق السفر وقلة النوم، كان ينبغي عليه أن يزور الرفيق مثنى، حاملاً معه بعض الهدايا التي أحضرها من خيرات المنطقة.

قام الرفيق مثنى من مقعده واحتضنه مرحباً به..

لكن مختار أحس بشيء غير طبيعي في نبرات صوته.

ـ هل أنت بخير؟ سأل مختار.

أشار له الأستاذ بيده إشارة تعني أنه جيد، ثم أشار له مرة أخرى بالجلوس قبل أن يرحب به مجدداً سائلا:

ـ كيف كانت إقامتك هناك؟

ـ رائعة، استفدت منها كثيراً.

ـ نعم، أعلم هذا، كنت بحاجة لتجربة مثل هذه في منطقة أخرى وتقاليد مختلفة، هل يمكن أن تخبرني ماذا استفدت هناك؟

ـ أعتقد أن السبب هو معرفة الآخرين، وأهمية التنوع والاختلاف، وتجربة حياة أخرى.

اكتفى الرفيق مثنى بهز رأسه مع بعض التوهان في عينيه ثم قال:

ـ جميل جداً أنت يا مختار دائماً، لكن هناك أسباب أخرى سوف تعرفها في المستقبل بنفسك.

لحظات صمت مرت ومختار ينظر إلى أستاذه بصمت، وهو جالس على كرسيه بصمت أيضاً، أحس بثقل ما يحمله في داخله فأراد أن يفرج عنه وهو يتصنع السعادة في كلماته.

أدرك مختار بحدسه الشديد أن سبب حزن الرفيق مثنى هي الخلافات السياسية الواضحة التي سمع عنها الكثير في ردفان، فهناك في الريف تصبح الأسرار مشاعة، العاصمة عدن المغلقة والخائفة دوماً، لهذا لم يتحدث كثيرا معه خشية منه ورهبة، وهو في حالة الحزن الشديد والتوهان.

مضت أيامه بسرعة، وكأنه كان ضيفاً، يصحو متأخراً ويسهر مع صديقه سالم، إما في جلسات القات، أو يحتسيان الخمر أحياناً.

صار مختار أكثر إحساساً بأنه أصبح رجلاً يفعل ما يحلو له.

كان يريد أن ينسى أي شيء يذكره بحبه لسناء، أو بنظرات الرفيق مثنى الحزينة.

في اليوم التالي قال له سالم ضاحكا:

ـ لن أشرب معك بعد اليوم أبداً.

ـ لماذا؟

ـ كدت أن تقضي علينا، كل كلامك كان في السياسة، مادخلي أنا بالمكتب السياسي للحزب وبروسيا.

ـ هل كنت كذلك بالفعل؟

ثم أطلق ضحكة مجلجلة، وبادله سالم الضحك أيضا..

أعقب ضحكته بقوله:

ـ تباً للسياسة، تلاحقنا حتى ونحن غائبون عن الوعي.

ـ .

ـ تبا.

ـ

ـ

في أحد أيام الاثنين كان على موعد مع الأستاذ قاسم في مقر الحزب.

ذهب مبكراً في الصباح وبقي ينتظره ربما لساعتين وأكثر.

كان لقاءً قصيراً لكنه شاهد نظرات الحزن نفسها التي كانت بعيون الرفيق مثنى، فأدرك مختار أن الأمور وصلت للحضيض في القمة.

انتهت العطلة الصيفية بسرعة كبيرة، مع القليل من العمل والكثير من النوم والمرح الليلي، لكنه كان يلتقي شخصياتٍ حزبيةً كثيرةً مع الرفيق مثنى، سمع في تلك اللقاءات الكثير من الهمسات عن الخلافات السياسية التي كانت أغلبها ذات بعدٍ مناطقي أكثر من حزبي.

الجميع يتحدث عن استيلاء منطقة واحدة على كل

المناصب؛ لأن الرئيس منها.

غادر عدن مجدداً إلى ردفان بعد أن ودع أمه وأخته بالكثير من الحزن، لكنه كان متلهفاً للسفر فلم يكن يتخيل أن مغادرة عدن ستكون سهلة ومتقبلة لهذه الدرجة في أحاسيسه، وأوصى صديقه سالم بهما، وتوفير احتياجاتهما.

يناير 86

كان الصيف حاراً في ذلك العام 1985م، لكن حرارة قلبه كانت أشد وهو يشاهد سناء بابتسامتها الخجولة، والتي -ربما- كان هو يملك ابتسامة أشد خجلاً منها، أو هكذا كانت تراه، كما كان يحدث نفسه بعد كل مرة يراها ولا يحادثها.

هذه المنطقة شبه الجافة لم يكن يرويها سوى حبه لسناء.

كان كل شيء بعينيه يتحول للون الأخضر الباهي بمجرد أن تعبر في مخيلته أو يراها.

مع قرب انتهاء الفصل الدراسي في يناير كان قد قرر محادثتها وليكن مايكون.

لن يظل هكذا يعاني وهو لايعلم شيئاً عن حقيقة حبها له.

ربما كانت مجرد طفلة تشاهد شاباً أسمراً من عدن لأول مرة في حياتها.

وبينما كان يغوص في رمال أفكاره وخططه مع سناء..

أخرجه من كل هذا صوت صراخ فظيع:

ـ الرفاق..

أشعلوها.

نهض مختار من مكانه واقفاً بفزع، لكنه شاهد أحد زملائه يدخل لغرفة السكن الجماعي مستطرداً بنفس نبرة الصراخ:

ـ قاموا بإشعال البارود، وجميعنا نجلس فوق البرميل.

ـ ماذا هناك يا أخي؟..

صاح مختار بفزع.

ـ هناك أصوات قذائف منذ ساعة في عدن، وأخبار عن وجود قتلى، واختفاء الرئيس، ومقتل الكثير من قادة اللجنة المركزية للحزب، ويقال إن بياناً سوف يذاع بعد الظهر، يعلن فيه عن محاولة انقلابية من قبل من أسموهم بالزمرة الانقسامية.

ـ ماذا عن البقية؟ وماذا عن الاجتماع السابق يوم 9؟

ـ لا أحد يعلم..

لا أحد يعلم بعد.

فشل الاجتماع، ولم يتفقوا حول صلاحيات أعضائه، فحددوا موعداً للمكتب السياسي تاريخ 13 مجدداً.

ـ اليوم؟

ـ نعم، اليوم.

لم يكن أحد يعلم أنهم سوف يشعلون البلاد.

ثم دار حول نفسه بلا هدف بينما مختار يحدث نفسه بهلع:

ـ علي أن أعود لعدن اليوم، أمي وأختي هناك لوحدهما.

انطلق بعدها خارجاً يبحث عن طريقة للسفر لعدن، لكنه فشل فشلاً ذريعاً فكل شيء متوقف، وكل الاتصالات منقطعة، ولم يستطع الاتصال بالرفيق مثنى لكي يطمئن على أمه وأخته.

كانت أياماً سوداء بكل ماتعنيه الكلمة.

عانوا فيها من كل شيء وغياب المواد التموينية.

كادوا أن يموتوا من الجوع ومن الخوف، وهم يستمعون لبعض الأخبار من المذياع الذي كان صلتهم الوحيدة بالعالم.

في أحد الأيام وهم يستمعون إلى المذياع، سمعوا عن استشهاد بعض القادة في اللجنة المركزية بسبب كمين أعده لهم الرئيس.

عرف فيما بعد من الناس أن أعمالاً انتقامية حصلت في كامل عدن ومناطق أخرى، وانقسم الجيش والدولة لفصيلين، وكل فصيل يقوم بقتل الآخرين حسب الانتماء المناطقي.

ـ ماهذا العبث؟ نحن لسنا دولة رجعية، لا يمكن أن

يفكـروا بهذه العقلية المناطقية المتخلفة التي كنا نهاجمها وننتقدها في الشطر الشمالي، وفِي دول الجوار.

بدا التذمر واضحاً على وجه مختار، وغابت عنه الابتسامة.

شعر أنه هو المستهدف وليس الوطن.

واضح جداً أن الإمبريالية والرجعية انتصرتا على التقدمية والبناء والاشتراكية الحقيقية التي كانت تسير عليها البلاد.

اسـتطاع بعد أسبوعين كاملين أن يتدبر أمر السفر لعدن عبر طرق مختلفة وعرة، حتى وصل لمنزله قبيل الفجر.

كان يحمـل أفـكاراً سـوداوية مخيفـة، وكان يسـتعد للأسوأ.

في الخلاف الأول فقد والده، فهل سـيفقد باقي أهله في الخلاف الثاني.

حينما يختلف الكبار فـإن أمثالنا من الطبقات الكادحة هـم أول الضحايا، يرحلون بلا سـبب حتى دون أن يسـتوعبوا ماهية الخلاف، أو من هم الذين اختلفوا فجاءوا لقتلهم.

ـ لكنني أعرف..

صرخ مختار بغضب داخلي قبل أن يستمر بينه وبين نفسه:

ـ أنـا أعرف أنهـم مختلفون منذ نصف عـام، وأعلم لماذا اختلفوا، لهذا لن نموت.

في السياسة يموت من لا يعرف.

مع وصوله للمنزل، وطرقه للباب، ومناداته كالعادة لوالدته من الخارج حتى لا تفزع، كانت كل الأحزان بقلبه تستعد للفيضان قبل أن تفتح له أخته المنزل بفرح مشوب بالهلع.

كان كل شيء يعود رويداً لطبيعته الإنسانية مع قبلات أخته، ثم أحضان والدته، وبكاء الجميع وسط الحضن الثلاثي والأصوات الهستيرية غير المفهومة.

فوجئ بحالتهم الجيدة، فالخوف في قلب الحرب ربما يكون أقل من الشعور بالخوف بعيداً عنها.

عرف فيما بعد أن صديقه سالم جاء وأعطاهما كل مابحوزته من بضائع ومواد غذائية كان يتاجر بها، وأعطاهما بعض الأموال التي تخص مختار من تجارتهما المشتركة، فهو سيغادر لمنطقته؛ لأنهم أصبحوا مستهدفين، بحكم انتمائهم الجغرافي لمنطقة الرئيس وزمرته كما أصبحوا يعرفون.

وأخذت والدته تحكي له ماحدث خلال الأسبوعين الجهنميين، وإن كانت أيامها الخمسة الأولى هي الأسوأ من حيث القتل والتدمير وسماع القذائف تدوي من بعيد.

كانت صفية تحمد الله أن حيهم كان بعيداً عن أماكن

الصـراع الكبـرى والمعسـكرات فـي باقـي المناطـق ومـا جاورها.

بعد مضي الخمسـة الأيام الأولـى توقفت أصوات القذائف في عدن، وبـدأ الناس يخرجون للبحث عن الطعام والماء في كل مكان.

شاهدت صفية مناظر مخيفة لأناس يموتون، وجثث جنود ملقية بالشوارع.

سمع قصصاً فظيعة عن أخبار قتل بالهوية، كل من يحمل بطاقة شـخصية مـن منطقة ما يتم قتله ميدانيـاً أو اعتقاله ثم قتله بعد ذلك.

قيـل لـه أن أتبـاع الرئيـس فعلـوا نفـس الشـيء داخـل المعسكرات التي يسيطرون عليها في قتل من ينتمي للطرف الآخر من الصراع.

مناظر مخيفة للقتل والنهب والسرقة والتقطعات في الليل.

هـل يحدث هذا في بلادنا؟ وفي عدن تحديداً؟ وقد كان مجـرد حمل السـلاح فيها يعتبـر جريمة، والآن يشـاهد كل أنواع الأسلحة في عرض حي وهمجي.

"ســـــالم"..

تذكر صديقه وسـط الذهول ومناظر الرعب المنتشـرة، فتوجـه إلى منزله للاطمئنـان عليه، لكن أحدا لم يرد، فقام بفتح الباب والدخول، ليجد أن اللصوص قد سبقوه فاقتحموا البيـت مـن النافـذة، وقاموا بسـرقة كل ما يـؤكل، وقاموا بتكسير بعض الأثاث، فحمد الله أنهم لم يفكروا بإحراقه، لهذا قرر أن يحرس منزل صديقه، فقام بإحضار أحد زملائه السابقين، وكلفه بحراسة المنزل مقابل أجر معين.

كان يأمل أن يكون بخير وكذلك أهله.

يجـب أن يتوقف هذا العبث، لهذا فكر أن يذهب للرفيق مثنى وقد وجده في منزله بعد بحث شاق.

أخبره أن الرئيس أصبح في حكم المهزوم، خصوصاً بعد قتـل واختفاء أغلب أتباعـه في المناصب المختلفة في الجيش والدولـة وهـروب البقية، كما أنه بنفسـه هـرب إلى منطقته منذ اليوم الأول.

ـ هـل سـيتم قتـل كل أبنـاء منطقتـه كمـا يقـال؟ سأله مختار ببراءة.

ـ الأمـر لا يتم بهذه الطريقـة، ولكن حتما هناك ضحايا

هم مصير التأجيج الحزبي والشحن العاطفي الذي كان يتم تغذيته طوال الفترة الماضية، ثم خلال الصراع.

فأنت لا يمكنك توجيه هذا حيث تريد إذا خرج عن السيطرة.

ـ يجب أن يتوقف هذا الصراع.

ـ بالتأكيد سوف يتوقف، لكن الثمن سوف يكون باهضاً ومريعاً للجميع على حساب التوجه الاشتراكي والتقدمي في بلادنا.

كان مختار يفكر بكل الأمور، ولديه الكثير من الاستفسارات في رأسه، لكن في ظل نشوة النصر المسيطرة حالياً على فريق الطغمة ـ كما تمت تسميتهم ـ كمقابل سياسي لفريق الزمرة المنهزم، فإن المزيد من الأسئلة؛ يعني الشك الذي يرقى لمستوى الخيانة في زمن الحروب.

بعد مضي الأسبوعين توقف القتل والتدمير ليس في عدن فحسب، ولكن في كل أرجاء البلاد، كما سمع مختار، لهذا فقد كان حريصاً على معرفة مصير صديقه سالم، لكن دون جدوى.

عرف فيما بعد أن الكثير من مسؤولي الدولة والقادة الحزبيين ومنتسبي الجيش الموالين للرئيس قد لجأوا لشمال الوطن، وبعضهم هرب إلى «جيبوتي» أو «إثيوبيا» أو

«السعودية»، وبقية دول الخليج الأخرى.

تمنى أن يكون صديقه وأسرته من ضمنهم، فهذا أفضل حالاً لهم من أن يقتلوا.

بعد شهر من بدء الصراع صدرت تعيينات جديدة في الدولة، وتمت ترقية الرفيق مثنى لمسؤول حزبي كبير، وتم توزيع بيوت أنصار الرئيس السابق على المنتصرين والموالين لهم، ونهب كل أملاكهم وأموالهم تحت نظر الدولة وبرعايتها، لهذا فقد ذهب للرفيق مثنى في مكتبه الجديد مهنئا ومستفسراً عن مصير منزل صديقه سالم فقال له:

ـ إن كان يهمك أمر المنزل، فأنصحك بأن تأخذه أنت. أنت تحميه منذ نهاية الحرب وشبه مقيم فيه.

ـ لا..

لا يمكنني ذلك، هو منزل صديقي.

ـ إن لم تأخذه أنت سوف يأخذه غيرك، صدقني يا ولدي.

البيوت كلها تمت مصادرتها بدون أي تنظيم، كل من أعجبه بيت استولى عليه، رغم أنها تابعة للدولة، وقد آن الأوان للخروج من المنطقة المشبوهة التي تسكن فيها، فسمعتها غير جيدة.

لاحقاً، ساعده الرفيق مثنى في تسجيل المنزل باسمه إلى

حين عودة صديقه ولو بعد حين، وانتقل بعد مرور ثلاثة أشهر للسكن فيه بعد أن تأكد من بعض الأصدقاء بأن أسرة سالم قد هربت إلى شمال الوطن، ولم يمت منهم أحد.

كانت هذه أول مرة يسكن في شقة بعمارة سكنية بدلاً من المنزل الأرضي المبني بالخشب.

كانت نقلة كبيرة في المستوى وفي المعيشة، لكنه كان على ثقة بأن سالم سوف يعود ذات يوم لوطنه ومنزله.

كان مختار قد بدأ يحضر بعض الاجتماعات الحزبية على مستوى أكبر مرافقاً للرفيق مثنى، وقد لاحظ أن نبرة الرفيق قد تغيرت، فبعد أن كان محايداً في بدء الصراع ويلوم الجميع، أصبح الآن يبدي كلمات متطرفة بحق الرئيس الهارب وأتباعه.

يبدو أن لغة المنتصر تصبح أكثر تشدداً والمصلحة تحكم بمنطقها فوق الجميع، وربما يكون هو الخوف؛ الخوف الذي كان في نفوس الجميع إبان الصراع يتحول لغضب وتطرف فيما بعد.

بعد استقرار الأمور واستتباب الأمن، عادت الدوائر الحكومية للعمل، وكذلك المدارس، ورغم مشاهد الدمار والتخريب في بعض المناطق، إلا أن الحياة الطبيعية عادت لوضعها السابق، لكنه لاحظ مشاهد واضحة للانكسار

والخوف تملأ عيون الجميع بلا استثناء.

حينما قابل الرفيق مثنى فاتحه بخصوص عودته لإكمال فترة الخدمة الإلزامية للتدريس في ردفان، إلا أنه فوجئ برد الأستاذ وهو يخبره:

ـ لا..

ليس بعد اليوم.

ـ ماذا إذن؟

صاح مختار بحدة..

أطلق الرفيق ضحكة مجلجلة وهو يقول:

ـ يبدو أنك أحببت المنطقة أيها الفتى؟

كان في عبارته بعض الخبث، لكن مختار تجاهل هذا وهو يقول:

ـ إنها منطقة جميلة، وقد أحببت أن أكمل الخدمة هناك.

ـ آها، معك حق، ولكن آن الأوان لموسكو هذه المرة، فالعام الدراسي أوشك على النهاية، ولن تستفيد شيئا من الفترة المتبقية من العام.

اتسعت عينا مختار بدهشة لثوانٍ، ثم بدا الانكسار واضحاً على صوته وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة ونظره للأرض، فأكمل الأستاذ حديثه متجاهلاً حالة ومشاعر

مختار المتناقضة:

ـ موسكو أيها الفتى النحيل الأسمر.

لا تأتي هذه الفرصة لأي شخص حتى لي؛ لأني لم أزرها بعد.

كان يريد أن يودع سناء على الأقل، لكنه لم يكن يملك خياراً آخر، فالرفيق مثنى يعلم بما يصلح له، وصاحب الفضل فيما وصل إليه، ويبدو أنه كان يهيئُه لأمر ما، وهي فرصة لن تتكرر له ولمستقبله الأكاديمي والسياسي.

وفي كل الأحوال كان يعلم بأن حبه سوف يصل لطريق مسدود، وأن سناء سوف تصبح جزءً من الماضي، وهكذا تحول حبه الأول لحطام بقرار سياسي.

مرّ الصيف ساخناً في منزل مختار أيضاَ بسبب كمية العواطف والأشجان التي ملأت أركانه.

كانت والدة مختار تبكي في أغلب الأيام، وهي تعلم أنه سيفارقها مطولاً هذه المرة.

كانت حزينة جداً، وكأنه سيغيب للأبد.

ـ أعدك بأني سأزورك بعد عام.

ـ على من تكذب؟ ها هو عمار ابن جارنا لم يعد منذ أربع سنوات، وكذا ابن أخيهم لم يعد منذ ثلاث سنوات، فالدولة

لا تعطي تذاكر سنوية.

ـ عديني بألا تبكي وأن تتوقفي فوراً عن البكاء، وسوف تريني هنا في يوليو القادم.

كانت مستمرة بالبكاء، لكنه واصل حديثه:

ـ لقد وعدني الرفيق مثنى بهذا.

ثم التفت لأخته أمينة قائلا لها ممازحاً:

ـ سوف أترك هنا مراقباً، اكتبي لي بكل ما تقوم به أمي، وإذا بكت أو حتى شاهدتِ الدموع فراسليني على الفور.

ـ لا تهتم، لكن ماهو المقابل أيها الدب الروسي؟ قالت له أمينة ضاحكة:

ـ دب روسي؟ وهل يوجد دب روسي بيد معاقة وأسمر؟

كان مختار يريدها مزحة لكن والدته وأمينة لم تتقبلاها، حينما ذكر إعاقة يده فعادتا للبكاء مجدداً.

ـ أووووه ، أنا سوف أخرج.

ماهذا الحزن، أصبحت أفكر بعدم السفر.

صاح مختار بضيق.

جرت أمينة خلفه وهو تشده من قميصه لإثنائه عن الخروج:

ـ سوف نتوقف.

اليوم طبخت لك بنفسي.

عاد مختار للخلف، وأمينة مستمرة بشده فقال:

ـ إذن فلنجرب الموت بتناول هذه الوجبة الخطيرة.

ـ اسمعي يا أمي، يقول بأن طبخي سوف يقتله.

صاحت أمينة لأمها بغضب مصطنع، فأخذ الجميع يضحكون وسط تساقط بعض الدموع.

أنهى مختار بقية الإجازة في إكمال الإجراءات وتوقيع الأوراق اللازمة للسفر، وظل منتظراً تحديد موعد تفويج الدفعة الجديدة من الطلاب مع من عادوا لقضاء الإجازة في ربوع الوطن الذي تحدد أخيراً في منتصف أغسطس.

فقام بتوديع الرفيق مثنى والأستاذ قاسم الذي حمّله نصائح كثيرة عن الاستفادة من كل شيء هناك، والاحتكاك بالتجربة السوفيتية، والاشتراكية الحقيقية في بناء الدولة والإنسان، فالأمل معقود على الشباب بعد اليأس من الكهول.

ودع والدته في يوم السفر وأخته أمينة كذلك.

كان وداعاً سريعاً كما هي عادته، ولم يكن حزيناً على الفراق حينها، أو ربما كانت لهفة السفر والتحليق بعيداً أكبر من الوداع ولحظاته الحزينة.

يومها قالت له أمه:

ـ هل تذكر كلامك السابق عن الرئيس، وعن اقترابه من السياسة دون خطر، هاهو قد مات شر ميتة، مات مقتولاً وبيد رفاقه.

ـ لكنه مات شهيدا يا أمي، مات بطلاً.

ـ مات من أجل الكرسي والمنصب، في الأخير مات مقتولا.

هذه هي السياسة يا ولدي، سم قاتل.

ـ اطمئني أنا بخير، ولست سوى شخص تافه لا يساوي أي قيمة بنظرهم، اطمئني، سوف أتفرغ للتعليم والدراسة فقط.

انصرف عنها مبتعداً وهو يغالب مشاعر مختلطة من الحزن والسعادة، والرغبة بالطيران إلى أقصى مكان يسمح به.

«وداعاً أمي وأختي..

وداعاً رفاقي وزملائي..

وداعاً مدينتي الحبيبة وبلدي.

وداعاً صديقي سالم..

أيها البعيد الغائب»

كان الوصول إلى موسكو حلماً، أصبح حقيقة مع هبوط الطائرة على أرضية مدرج المطار.

أكملوا إجراءاتهم بعد تفتيش دقيق لكل ما يحملونه

من حقائب وأكياس وملابس، وعند الخروج استقبلتهم فتاة روسية شقراء تحمل لافتة مكتوب عليها « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية « باللغتين العربية والروسية.

عند سيرهم خلف الفتاة أطلق الشباب الكثير من التعليقات على الفتاة وجمالها، لدرجة أن أحدهم قال:

ـ لو كانت في بلادنا لأعطيناها منصب الرئيس فوراً.

وسط ضحكات الجميع، بدأ يتأمل الفتاة بدافع الفضول، فوجدها رشيقة وملامحها جميلة، لكن الذي لفت نظره أن تعليقاتهم كانت أكثر جرأة وحرية حتى في الجانب السياسي، بينما كان هو يتابع بصمت ويتأمل ماحوله أكثر مما يتكلم.

عند وصولهم للحافلة المخصصة لهم، كانت الفتاة تدعوهم للدخول وتقول لهم بلغة عربية سليمة:

ـ اصعدوا..

بهدوء.

فأخذوا يضحكون فيما بينهم على سذاجتهم، ويسخرون من بعض تعليقاتهم وكلامهم عنها، خصوصاً لذلك الذي منحها منصب الرئيس، أما هي فقد اكتفت بالابتسام، وهي تشير بيدها إشارة تعني الصمت، فصمتوا على الفور.

أما مختار فقد فهمها؛ بمعنى أنها لن تشي بهم..

بما أنها ابتسمت.

بعد يومين في مكان إقامتهم المؤقت، كان عليهم أن يقابلوا اللجنة التي تقوم بتحديد أماكن دراستهم وما يناسبهم.

كان جميعهم من السوفييت وهناك مترجم بينهم، فتم تحديد أماكن دراساتهم وتخصصاتهم في جامعات مختلفة في جمهوريات الاتحاد، وعندما حان دور مختار للمقابلة قررت اللجنة إحالته للمستشفى أولاً لمعاينة الإعاقة في يده، ثم العودة مجدداً.

كان سعيداً باهتمامهم، وبأنه سوف يحل عقد يده المستفحلة، ولكن أصابه بعض الخوف والتوتر حول مصير يده.

بعد مقابلة طبيب العظام بالمستشفى وإجراء الفحوص والأشعة، قرر إجراء العملية له، وتم تحديد الموعد بعد أسبوعين.

هذا يعني أن العام الدراسي سوف يفوته لذا فقد أصابه الحزن رغم فرحه بالعملية.

في مكان الإقامة الذي أصبح خالياً من اليمنيين، وبشكل خاص من رفاقه الذين جاء معهم، والطلاب من مختلف الدول بشكل عام، كان يستغل الوقت بالكتابة،

والتنزه في الشوارع المحيطة والعودة بسرعة لكيلا يتوه.

كانت موسكو ساحرة في الصيف.

كان يتخيلها سابقا تشبه عدن، بما أنها اشتراكيه، بل هي مهد الشيوعية وانطلاقتها في كل أرجاء العالم.

لكنه شاهد عالماً آخراً مختلفاً.

شوارع متسعة وبنايات كبيرة.

كانت عدن مقارنة بموسكو تشبه قرية كبيرة.

بدت له عدن مدينة مهمشة وفقيرة.

كان مندهشاً بشكل كبير لهذا المستوى الكبير من المدنية والتطور، لكنه استغرب في نفس الوقت من عدم نقل هذا لبلادنا.

لماذا كنا نتبعهم أيدلوجيا وينقلون لنا الأفكار والسلاح دون أن ينقلوا لنا المدنية والحضارة؟! حتى لو شارعاً واحداً من موسكو يكفي لأن يجعل عدن عروس المدن في المنطقة، وترويجاً جميلاً للاشتراكية..

«صدقت أمي.

السياسة سم قاتل.

هذا هو التوجه الاشتراكي الصحيح».

برزت كل التناقضات في نفسه وهو ينطقها بصوت عالٍ

ثم أكمل:

«الـذي يبني ويطـور لا يهدم، هاهي موسـكو تقود العالم في الاشتراكية وتبني نفسها».

عقـد العـزم حينهـا علـى أن يهتم بتعليمـه، وأن يطـوّر من مستواه ومداركه.

تعرف على فتى من يوغسلافيا وآخر من تشيكوسلوفاكيا في مكان الإقامة، بقيا لأسباب لا يعلمها.

كان التواصل بينهم معدوماً بسبب اللغة، إلا أنهم كانوا يخرجـون معاً للتنزه والعودة وتناول الطعام معا، ولعب الكرة أيضاً.

كان يعـود للكتابة فور أن يخلو بنفسـه، وكذلك كان يحـاول كتابـة الحـروف الأبجديـة الروسـية دون أن يعـرف ماهـي، ويقارنها بالحـروف الإنجليزية، ويتخيـل أن الأحرف الروسـية هي نفسـها الإنجليزية لكنها مقلوبة، فكان يقلب الورقة بعد كتابة حرف إنجليزي، ويقارنه بحرف روسي آخر في الصحيفة، ويضحك على نفسه بسبب هذا التفكير.

كما أنه قام بكتابة الكثير من الرسائل لوالدته وللرفيق مثنى كذلك، وإرسالها عبر البريد، يخبرهم فيها عن أخباره وحالته، وعن موسكو، وعن كل شيء يخصه.

عند ذهابه للمستشفى في الموعد المحدد، أخبره الطبيب

أن هنـاك عمليتيـن سـوف يجريهما لـه، مما أشـعره بالخوف مجدداً بعد أن زال عنه وهو ينتظر موعد الزيارة.

أخبـره الطبيـب بأن العمليتيـن لابد منها كـي يتم تعديل وضع اليد بصورة ملائمة ومقبولة، وأن عليه الانتظار شـهرين بيـن كل عمليـة وأخـرى مـن أجـل التئـام العظـام بشـكلها الجديد، وهو مايعني الانتظار أربعة أشهر أخرى.

كان يراوده بعض الأمل في أن يسـتطيع اللحاق بالموسـم الدراسـي، خصوصاً وأن أمامه سـنة أخرى سـوف تضيع في دراسة اللغة الروسية.

كان حزيناً جداً بسـبب هذا، فبالإضافة إلى آلام العملية الأولـى، والإحسـاس بالغربـة، وافتقـاده لوالدتـه وأسـرته؛ جعلـه كل هـذا يصـاب بالاكتئـاب، رغـم مواسـاة زميليـه اليوغسـلافي والتشـيكي اللذيـن تعـرف عليهمـا فـي الأيام الماضيـة، وزيارتهمـا له في المستشـفى بضع مـرات، إلا أن صعوبـة التواصـل معهمـا ومـع الطبيـب وطاقم المستشـفى، كانت تزيد من حدة الاكتئاب الذي يعاني منه.

وبعد مضي عدة أيام أخبره الطبيب بأن العملية الأولى تمت بنجـاح بفك العظام الموجودة في كفه، وكسـر بعضها، ثم ترميم العظام بشـكل سـليم، وأن عليـه أن يصبر ويتأقلم مع الوضـع الجديـد، والمراجعة الدورية طول الشـهرين، لتعديل

وضع الجبيرة قبل البدء بعملية التعديل الأخيرة، وترميم الجلد.

شهران في موسكو يعادلان عاماً في عدن ليس بسبب الملل فحسب، ولكن بسبب ماتحويه هذه المدينة من روعة وبهاء.

كان يسمع أن عدن ثاني أفضل ميناء بالعالم، فكان يظن أنها أفضل مدن العالم.

موسكو ليست ميناءً بحرياً، لكن لا يمكن المقارنة بينهما، فموسكو مدينة ساحرة وعملاقة، وعدن أشبه بالقرية الصغيرة، كما أن كل القصور والمنازل القديمة في موسكو مازالت على حالها وتحولت لمتاحف مليئة بالآثار والمقتنيات العتيقة، على العكس من عدن التي أصبحت معظم المباني القديمة وقصور السلاطين فيها منازل للرفاق أو مقرات حكومية، فالاشتراكية طوّرت من موسكو، بينما لم تستطع أن تضيف لـ عدن أي شيء، فكانت هذه المقارنة هي الأولى، وكانت صادمة إلى حد كبير.

بدأ يتعلم بعض الكلمات الروسية التي يسمعها ويعرف معناها في إطار المكان الذي يقيم فيه مع العمال والموظفين.

في البداية كانوا يضحكون من نطقه للكلمات وطريقة إلقائها، فيخجل من ضحكاتهم ونظراتهم، لكنه قرر أن

يجعلها وسيلة للمرح والتعلم، وأصبح كلما ضحكوا من كلمة يعيد تكرارها عدة مرات كي يتخلص من الإحراج رغم ضحكاتهم المتواصلة.

وبعد مرور الشهرين ذهب للمستشفى من أجل إجراء الفحوص اللازمة لإجراء العملية الثانية بعد نجاح العملية الأولى.

لم يشاهد يده بوضعها الجديد إلا مرات قليلة، أثناء تغيير الجبيرة خلال فترات العودة للمستشفى، وقد قام الطبيب بتحديد اليوم التالي موعداً للعملية الثانية، فخرج منها ويده ملفوفة بالضمادات مع جبيرة خفيفة.

وبعد أسبوع خرج من المستشفى، لكن الضمادات مازالت موجودة، ولم يستطع تحريك يده منها.

كان متحمساً أن يرى يده، وأن يحركها.

بعد مرور أسبوعين عاد للمستشفى لفك الضمادات وإجراء الفحوصات النهائية، كان سعيداً بشكل يده الحالي، صحيح أنه لم يستطع تحريكها مثل اليد الأخرى، لكنها كانت أفضل بكثير من السابق.

ماعدا تحريكها بشكل كامل فإن الشكل العام جميل جداً، ولا يمكن ملاحظة أي خلل فيها، باستثناء آثار الغرز الجراحية، وقد أخبره الطبيب بأن تحسين مستوى

حركة اليد يعتمد عليه هو في ممارسة الرياضة، والتدرب على استخدام يده، لهذا كان حريصاً على أداء التمرينات واستخدام يده بصورة تدريجية، بسبب الآلام في البداية.

أصبح مختار سعيداً جداً بيده، وواثقاً بنفسه وهو يتحرك أو يجلس مع من حوله، رغم أنه لم يعد لديه من يجلس معه في مثل هذا الوقت من العام، فلا وفود جديدة تأتي، بسبب بدء العام الدراسي منذ فترة طويلة، ولا طلاب باقين معه.

لهذا فقد كان «ديميتري» عامل البوفيه متفرغاً لتعليمه، ويبدو أنه كان يستمتع بتعليمه، فاستغل مختار هذا، مقابل بعض المشتروات البسيطة التي كان يطلبها منه على سبيل الهدية.

كان يرغب بالاستفادة لأقصى درجة من ديميتري لتعويض ما فاته من الدراسة، وأن يختصر الوقت على نفسه مستقبلاً.

بعد انتهاء شهر وعشرة أيام، أعطاه الطبيب الضوء الأخضر، وبأن يده أصبحت في حالة جيدة، وقد قررت اللجنة تحويله لدراسة اللغة الروسية في الجامعة في موسكو لسهولة مراجعة الطبيب.

مع مرور الوقت والمزيد من التمارين، بدت يده شبه طبيعية، وقد أخبره الطبيب بأن بعض العظام بسبب الإعاقة المولود بها كانت منحنية، لهذا حتى بعد إعادة ترتيبها في

الحالة الجديدة، مازالت منحنية أو مقوسة، وهذا هو سبب الشكل غير المكتمل الذي يراه، لكن مستقبلاً، سيتطور الطب وسيكون بإمكانه زرع عظام أخرى، أو من معادن بدلاً من تلك.

كان قد فكر بأن أفضل تمرين ليده هو أن يمارس الكتابة بها.

كانت عملية مرهقة في البداية ليد لم يكن يستعملها طوال حياته، وفجأة يقرر استخدامها في عملية معقدة كالكتابة، يستخدم بها كامل الكف والأصابع.

كانت فكرة ذكية منه على أية حال، وفي البداية بدت المحاولة صعبة ومعقدة، وكان أحياناً يكتب حرفاً واحداً في صفحة كاملة، ومع مرور الوقت أصبح يتحسن بشكل سريع، لكنه لم يكن مستعجلاً على الكتابة بقدر ماكانت نوعاً من التمرين الذي أوصاه به الطبيب.

إلى جانب دراسته للغة الروسية التي قطع شوطاً كبيراً بها بعد مرور أربعة أشهر، مازال أمامه فصل أخير قبل أن ينتقل للدراسة الجامعية التي يتلهف شوقاً لبدئها، لهذا فقد مرت الأيام بطيئة بعض الشيء، لكنه استطاع أن يتعرف على بعض الطلاب اليمنيين في جامعات أخرى جمعتهم به بعض الأنشطة.

كان الطلاب من مناطق مختلفة من الشطرين الجنوبي والشمالي.

كان الإحساس بأنهم من بلد واحد لا بلدين قسمتهما الأدوات الاستعمارية والإمبريالية، لهذا فقد تعرف على مناطق كثيرة لم يكن يعرفها من الشطر الشمالي من الوطن، فهناك أصدقاء من ذمار وتعز والحديدة إلى جانب المناطق الجنوبية من ردفان والضالع وأبين وشبوة.

مع نهاية الفصل الأول، صدرت الأوامر بأن يذهب إلى «كييف» لمواصلة دراسة اللغة الروسية والدراسة الجامعية هناك، لهذا فقد تجهز بشكل سريع، وغادر إلى محطته القادمة والمثيرة كييف..

كان قد أحب موسكو كأول مدينة غير يمنية يراها.

شتاء «كييف»

بـدت كييـف أصغر من موسـكو مبدئيـاً ، لكنها أيضاً جميلة ومتطورة.

اسـتطاع الاتحـاد السـوفيتي أن يحافـظ على مدنـه وإرثه منذ عهد القياصرة والعهود السـابقة ، وأن يطور هذه المدن ، بالعكـس مـن بلادنا التي أخفـت كل المـدن ، ومحت كل التاريخ؛ لأنه تابع للرجعيين والسلالات البائدة.

كانـت هـذه النقطـة بالـذات هـي الشـيء الـذي يزعجه ويعكـر مزاجـه ، إذ كيـف نهمـل مدننـا وتراثنـا ، بينما هم يحافظـون عليـه ، باسـتثناء هـذا ، كان يرى كل شـيء في الوطن جميلاً ومتطوراً.

وفي سكن الطلاب ، وضعوه مع طالب من أوغندا.

«يبـدو أن اللـون هو السـبب في اختيارهما معـاً» قالها في نفسه مازحاً.

كان « ويناي « طيباً وودوداً للوهلة الأولى ، بالإضافة إلى إجادتـه للغة الروسـية بشـكل كبير ، فقد تعلمهـا من والده الذي درس أيضا في «روسيا» سابقا.

ظهر شتاء كييف قارساً كبداياته في موسكو هناك، وقد شكلت رؤية الثلوج وهي تتساقط عاملاً ممتعاً بالنسبة إليه، لكن برودة الطقس كانت فظيعة جداً، كشاب عدني كان أقسى ما وجده من البرود هو نسيمات البحر في شتاء عدن المستعجل، أو في مكتب الأستاذ قاسم في مقر اللجنة المركزية.

أخذ يرتدي نصف ملابسه تقريبا كي يتخلص من إحساس البرد الفظيع وينام بالنصف الآخر.

مع استعداد الطلاب للفصل الثاني استعان بأحد أصدقائه اليمنيين «حمود « من الطلاب القدامى وهو من «مدينة إب»، من أجل مساعدته في دروس اللغة، وبشكل عام كان الجميع متعاوناً معه بشكل مثير للإعجاب، ولحماسة مختار نفسه.

أيضا كان ويناي متعاوناً معه، ويساعده في الكثير من أمور اللغة والترجمة؛ بما تسمح به خيوط التواصل اللغوي بينهما، وكان ويناي يرى مختار منكباً على دروسه وكتبه بشكل دائم، وكان يلاحظه وهو يحاول الكتابة بيده اليسرى للتمرين والتعود، وكان يطلب منه إراحة نفسه وعدم بذل الجهد الكبير في الكتابة والتمرين، لكنه أخبره وفق ماتعلمه من كلمات، بأنه حين يتفوق عليه في اللغة سيتوقف

عن بذل المزيد من الجهد.

شتاء كييف كان عاملاً مهماً لمختار لكي يعتكف في غرفته من أجل المذاكرة وحفظ الكلمات الروسية.

لم يكن يلتفت لما يقوم به أصدقاؤه وزملاؤه من سهرات في نهايات الأسبوع، أو الخروج في رحلة، أو مصاحبة الفتيات.

كان كل همه أن يتقدم في دروس اللغة الروسية، لكي يصل إلى مستوى زملائه أولاً، ثم لكي يبني الأساس الذي سينطلق معه في دراسته الجامعية لاحقاً.

مع نهاية العام، ورغم أن مختار أحرز تقدماً كبيراً في دراسته وإلمامه باللغة، إلا أن نهمه للدراسة والمذاكرة لم ينتهيا، ويبدو أنه تعوّد على هذا بشكل تام حتى نهاية العام.

مع دخول الربيع أجواء كييف، أنهى مختار عامه الدراسي في اللغة الروسية بنجاح جيد، أشعره بالزهو والفخر بنفسه، وقام في نفس اليوم بكتابة رسائل لوالدته وأخته أمينة، ولأستاذه الرفيق مثنى، ولم ينسَ أن يكتب أسماءهم باللغة الروسية من باب التأكيد على قدرته على ذلك، وحتى يعرفوا ذلك.

شعر لأول مرة بإحساس الربيع وتبدل الفصول، فبعد ذوبان الثلوج التي أثقلت كاهل الأرض بتراكمها، بدأت الأشجار تستعيد أزياءها الخضراء، وتزهر براعمها بألوان

الطبيعة الخلابة.

إحساس جميل كان يراوده وهو يتأمل كل هذا لأول مرة.

كانت كييف كامرأة حسناء تتزين لجلسة رومانسية مع حبيبها الأبدي.

بدأ يخرج مع ويناي أو ويني كما يسميه، ويمارسان بعض الألعاب، فاستهوته لعبة الشطرنج إذ وجد فيها تفكيراً وإبداعاً وصبراً، خصوصاً مع تميز الكثير من الروس على المستوى العالمي في الشطرنج، مما جعله يحبها ويتقنها خلال فترة وجيزة.

كما أنه أحب رياضة تنس الطاولة، كانت جميلة، وتساعده على تحريك يده اليسرى بصورة كبيرة جداً، وقد ظهر مختار نشيطاً ومختلفاً في العطلة الصيفية، ومحباً للحياة بصورة كبيرة، حيث كان يلعب ويمارس الرياضة، ويمازح الجميع، ويسهر مع بعض زملائه من اليمنيين والعرب في ليالي الأحد التي يقضونها في الشرب والرقص.

بدأت الدراسة الجامعية بصعوبة كبيرة، فقد كان الفارق كبيراً بين دراسة اللغة كقواعد، وبين دراسة علمية بتلك اللغة، لذلك فقد عاد مختار للاعتكاف بغرفته في ترجمة الكلمات الجديدة ومعرفة معانيها، لتعويض ما ينقصه في عدم فهم المحاضرين وهم يشرحون.

ويبـدو أن وضعه هذا أخذ يضايق زميله بالغرفة ويني الذي قال له يوماً:

ـ يبدو أنك من النوع الذي لا يفارق الكتب.

ـ أعلم أنك متضايق بجلوسي بالغرفة، وأنك تريد الاختلاء مع صديقتك.

ـ أنا أيضا قلق عليك، يجب أن تريح نفسك وأعصابك.

ـ منـذ متى ظهرت عليـك أمارات الإنسـانية والرحمة؟! لا تبالِ بي.

ـ أنا أيضا مثلك يا أخي..

طالـب جديـد، ومع هذا فأنا لا أسـتغرق كل هذا الوقت بالمذاكرة.

ـ لا أدري، ولكنـي أعاني من عدم فهم المحاضرين وهم يشرحون.

ـ نعم.

جلس ويني إلى جانب مختار وهو يكمل حديثه:

ـ أنـت تحتـاج لصديقة محلية، وسـوف تتعلـم اللغة خلال فترة وجيزة.

مشـكلتك أنـك كنـت تذاكـر وتحفظ الكلمـات بلا تطبيق واقعي.

نهض ويني خارجاً من الغرفة، وبقي هو صامتاً يفكر فيما قاله.

كان يستغرب من زملائه الذين كانوا يفهمون الشروح بسهولة، ويسأل نفسه دائماً عن قدرتهم، رغم أنه كان يذاكر أكثر منهم، كما أنه كان يدفع ثمن عدم دراسة الفصل الأول بشكل كامل بسبب ظروف العملية، بالإضافة لاعتكافه على الحفظ والتعلم لتعويض ما فاته كما أخبره ويني.

لم يقتنع بفكرة أن يصادق فتاة لمجرد أن يتعلم اللغة، بلا حب وبلا مشاعر وبلا زواج.

لم يفكر أبداً بهذا، ولم يتربَ على هذا.

أزعجه التفكير بهذه الأشياء كشخص ربّته امرأة، وعاش مع أخته.

فالمرأة لديه شيء أكبر من مجرد متعة جسدية، أو مصلحة مؤقتة، ففضل أن يخرج لكي يرتاح قليلاً.

كان يحب التجول عصراً لرؤية ملامح المدينة العريقة ومبانيها التي تحولت لمتاحف ومزارات ثقافية، على العكس من عدن التي أصبحت مبانيها العتيقة مجرد إدارات حكومية مهترئة بعد أن سرق السلاطين الجدد محتوياتها باسم الثورة.

بدأ يختلط أكثر بالمحليين من أبناء المدينة.

أراد أن يثبت أنه يستطيع مصادقة الجميع بلا استثناء، دون الولوج في علاقات جانبية تحد من طموحه كإنسان.

وقد لاحظ خوف الناس من الغرباء، لكنه مع مرور الوقت، تيقن من أنه غضب صامت من تدليل الغرباء من قبل حكوماتهم المتعاقبة على حسابهم هم، فبلادهم تمتلك ثروات طائلة بإمكانها أن تجعلهم يعيشون في مستوى أفضل، دون الإخلال بالمبادئ الاشتراكية العظيمة.

تحول هذا الغضب لخوف من الغرباء لكنه بدوره صامت أيضاً.

كان شغوفاً برؤية ملامح الناس من حوله، خصوصاً حينما كان يذهب للأسواق الشعبية في صباحات الأحد.

لاحظ أن وجوه الناس هنا جامدة، ملامح رتيبة كأنها ألواح ثلجية مثل سطح البحيرة في مساء شتوي، ربما لم ير ملامحَ جامدة مثل التي رآها على وجوه الناس هنا، على عكس بقية الجنسيات التي يراها في الجامعة، وهي من مختلف دول العالم.

قد يكون للطبيعة القاسية والحياة الرتيبة خصوصاً في الشتاء دور في هذا.

كانت التناقضات بين الشعار والسلوك قد بدأت تطفو بقوة على السطح، ويلاحظها كل متأمل ولبيب، لكنه

عـاد ليفكـر بعقلية الحزب المؤدلجـة التي تربى عليها؛ معللاً النفـس بأن مواكبة الحياة أمر ضـروري ومنطقي، ولابد من الظهور بمظهر حديث يعكس روح المبادئ.

تمنـى لـو كانت لديه كاميـرا يلتقط بهـا مايصادفه من مشـاهد، وينقل من خلالها انطباعاته لكي يراها مستقبلاً، لكنها باهظة الثمن هنا كسـلعة رأسمالية، ربما كانت في عـدن أرخـص بكثير، لكنهـا على كل حـال مازالت أغلى من سـعرها في تعز كما أخبـره صديقه حمود، فلا قيود ولا عوائق أمام جلب البضائع وبيعها من أي مكان بالعالم.

مـع مرور الوقت، أصبح يقضي وقتـاً أقل في غرفته، فقد أصبح يقرأ ويذاكر بسـهولة، والكلمـات الجديدة في كل مرة أصبحت أقل، وهذا ما جعل شريكه في السكن سعيداً وهو يشاهده يخرج ويحادث الجميع، وأيضا خلو الغرفة أحياناً له مع صديقته.

كان مختار يشـاهد ويناي والكثير من الطلاب اليمنيين مـع صديقاتهـم، وكان أحيانـاً يتحـرج مـن تلميحاتهـم أو نظراتهـم، لهـذا بـدأ يفكر بجدية فـي أن تكون لـه بالفعل صديقة يتحدث معها ويستمع إليها..

هنا فقط تذكر سناء، تلك الطفلة البريئة في ردفان التي أحبهـا بنقـاء، وربما هي أحبتـه أيضاً، فلم يكن يعرف سـر

ابتسامتها وخجلها حتى الآن.

كانت ابتسامتها طبيعية كبلاده، بلا أي تدخل بشري منذ أن وجدت على سطح الكرة الأرضية.

عيناها عميقتان كآبار الماء في تلك المنطقة الجافة إلا من سيول الوديان التي تجري على خديها، لتجرف معها كل الأحزان فجأة.

ذات يوم وهو في فناء الجامعة، وبينما كان سارحاً في خيالاته، شاهد فتاة أنيقة وجميلة تنظر إليه.

في البداية، كان يظن بأنها تنظر إلى خلفه، فانتبه بأنه يجلس بجانب الجدار ولا شيء خلفه مطلقاً.

حاول أن يتمايل يميناً ويساراً لكي يتأكد من مسار نظرها، فرآها تضحك من تصرفاته، أو ربما من بلاهته.

أشار لها بيده إشارة الاستفهام؛ بإدارة كف يده في الهواء بطريقة معينة، فرآها تنهض من مقعدها وتتجه نحوه.

كانت ممشوقة القوام وشقراء، وفي عينيها زرقة السماء في عدن.

ـ كريستيا.

نطقت الاسم وهي تشير إلى نفسها.

لبث ثوان وهو يحاول استيعاب معنى الكلمة قبل أن ينتبه

أنها تعرّف بنفسها له، فقال وهو يشير لصدره:

ـ مختار.

ـ موكتال.

ضحك قليلاً من نطقها، لكنه أشار برأسه إشارة تعني أنه سيتقبل هذا النطق.

استمرت كريستيا بالحديث قائلة له باللغة الروسية:

ـ أنا من من مدينة صغيرة تدعى «فينيتسا».

ـ فينيسيا؟.

ـ لا، تلك في «إيطاليا»، مدينتي تدعى فينيتسا وسط جمهورية أوكرانيا.

كان في تلك اللحظة يتأمل ملامحها.

كانت جميلة، ويبدو أنه قد استغرق وقتاً قبل أن يتدارك نفسه فقال بلغة روسية متوسطة:

ـ أنا من عدن، من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

ـ أووووه عدن! كان لدينا جار في مدينتي من عدن.

ـ جميل جداً.

لم يكن يعرف ماسيقول، فهذه هي المرة الأولى التي يحادث فيها فتاة في حياته كلها، وأيضاً باللغة الروسية الرديئة التي يمتلكها، ويبدو أن كريستيا أدركت هذا

فقالت له:

ـ هل تناولت طعامك؟

ـ لا ، ليس بعد.

اكتفى بالإجابة وصمت بعدها ، فنظرت له نظرة معينة ، تدارك بعدها قائلاً:

ـ هل يمكن أن أدعوك لتناول الطعام معي.

ابتسمت كريستيا لذكائه فأومأت برأسها علامة الموافقة ، ونهضا تاركاً لها المجال أن تتقدمه بخطوتين.

كان ينفث بعض الهواء من صدره لصعوبة التعامل مع فتاة بلغة يكاد لا يعرفها.

كان يتمعن في جسدها وهي تمشي أمامه ، قبل أن تستدير هي لتنظر إليه ، ويبدو أن شاهدت نظراته وهي تتفحصها ، فتأخرت قليلا حتى وصل لجوارها ؛ وأخذا يمشيان معا.

عرف أن المشي بجانب فتاة بدون حديث يشبه المشي في البحر ، كالرغبة بالموت مع محاولات النجاة اللاإرادية التي يقوم بها المنتحر ، لهذا قرر أن يتحدث بأي شيء فسألها :

ـ هل تدرسين هنا؟

ـ نعم في قسم الفيزياء ، هناك في ذلك المبنى المجاور للمكتبة في السنة الأولى ، وأنت؟

ـ أنا أدرس اللغة الروسية، والعام المقبل سأبدأ بدراسة الهندسة؟

ـ جميل جداً، والدي كان مهندساً.

ـ حقا؟ أين هو الآن؟

ـ لقد مات.

ـ أووووه، آسف.

ـ لا بأس، كان ذلك قبل سنوات، لا تقلق.

كانا قد وصلا لقاعة الطعام، فأخذا يسيران بشكل متجاور وسط نظرات بعض أصدقائه المتواجدين في تلك الساعة، وكان قد لمح بعضهم يغمز له بعينه.

كان الطعام بشكل عام مجاني، ولهذا لم يكن عليه أن يتحمل فاتورة الطعام المحدد سلفاً لكل طالب.

جلسا معا على طاولة الطعام وأخذا يتحدثان بأمور مختلفة، هو يسألها عن مدينتها وعن أهلها، وهي تسأله عن عدن وعن أهله، وعن الحرب التي وقعت هناك قبل أكثر من عام.

لاحظ بأنها تتابع الأخبار جيداً، فالصحف والإذاعات والتلفزيون في كل مكان؛ مما يجعل استقبال الأخبار والبيانات مثالياً.

وبينما هما في حديثهما وأسئلتهما الشخصية قاطعهما

صوت صديقه ويناي وهو يصرخ:

ـ أنـا أبحـث عنـك فـي كل مـكان، وأنت هنـا مع هذه الحسناء الجميلة.

ـ يبدو أن هناك من أخبرك بهذا.

قالهـا وهـو يشـير بطرف ذقنـه إلى مكان تجمـع زملائه الذين رأوه عندما دخل، فقال له ويناي بمرح:

ـ كنت أريد منك مفتاح الغرفة لقد نسيته بالداخل.

ثم التفت إلى كريستيا وهو يقول بصوت رقيق:

ـ أنا وهو نسكن في غرفة واحدة أيتها الجميلة.

ابتسـمت الفتـاة برقة لمغازلـة ويناي ولأسـلوبه المرح، أما مختار فألقى بالمفتاح بالهواء وهو يقول بتأفف:

ـ ابـقَ بالغرفـة حتـى آتـي، وإيـاك أن تعبث بسـريري مع صديقتك القبيحة.

ضحكت كريسـتيا بقوة، وقد أحسـت بأن مختار يشعر بالغيرة، لهذا انتظرت حتى انصرف ويناي لتمسـك بيد مختار وهي تقول له:

ـ شكرا لك لهذا الوقت الذي قضيته معي.

عليّ الذهاب الآن للمذاكرة، ثم الخروج لممارسة الرياضة في المساء.

كان مختار يتمتم ببعض العبارات التي لاتعني أي شيء، فلم يكن يدرك ماعليه فعله..

عندها استدركت هي:

ـ هل ستأتي معي؟

ـ أين؟

ـ لممارسة الرياضة.

نقضي وقتا مرحاً وممتعاً فقط.

ـ موافق، ولكن أين سنلتقي؟.

سنلتقي أمام هذه القاعة عند الساعة السابعة مساءً.

ـ سأكون هنا منذ الساعة السادسة.

قالها بمرح، فضحكت كريستيا وهي تبعد يدها منصرفةً، أما هو فقد بقي مندهشاً يشاهدها وهي تتصرف، ويتساءل في نفسه عن السبب الذي جعل فتاة مثلها بكل هذا الجمال تأتي إليه هو؛ ذلك الشاب الأسمر العدني البسيط.

هل أرسلها زملاؤه لكي تكون صديقته؟ إنها أجمل من صديقاتهم على كل حال.

اكتفى عند هذا الحد، هازاً رأسه بلا مبالاة، وقد قرر بأن يستمتع باللحظة كما أرادتها كريستيا لا أقل ولا أكثر، وسيمشي معها إلى حيث تريد هي، طالما أن هذا

غير ممنوع وغير مخالف للقوانين هنا.

عندما عاد لغرفته كان منتشياً، وأحس برغبة عارمة في كتابة الرسائل لمن يحبهم في عدن.

كتب لأمه رسالة يعتذر بها عن المجيء كما وعدها سابقاً في نهاية العام، لكنه أخبرها أنه أنجز الكثير، خصوصاً بعدما أصبح يستعمل يده بشكل شبه طبيعي، وصار يتكلم الروسية بصورة جيدة، وحملها حبه واشتياقه لها ولأخته أمينة، وأرسل لهما في وقت لاحق هديتين عبارة عن شالين من أحد أسواق كييف الشعبية مع أحد الطلاب المغادرين لعدن.

قام أيضا بالاتصال بهما بعد إدخال الهاتف للمنزل رغم تكلفة الاتصال الباهظة، ولكن سماع صوتهما كان دافعاً بالنسبة له، وقد أخبرته أمه بأن راتبه وراتب أبيه وراتبها التقاعدي، بالإضافة إلى إيجار المنزل القديم تصل بوقتها، وأنهما بخير حال، وأن الرفيق مثنى يتصل بها بين حين وآخر للاطمئنان عليه، فقام بالاتصال به وشكره على اهتمامه بوالدته في غيابه، وأنه سوف يكون عند حسن ظنه وتقديره.

كما لم ينسَ أن يكتب رسالة لصديقه البعيد سالم..

لكن بلا إرسال، فرسائل المفقودين لا تصل في ذلك اليوم خرج في الموعد المحدد مع كريستيا، وقد وجدها

تنتظر قبله بشورت رياضي قصير جداً وفانيلة بلا أكمام.

حينما وصل، ذهب إليها مصافحاً، فقامت باحتضانه، بينما هو اكتفى بالوقوف صامتاً وذراعاه مشدودتان للأمام، وعلى ملامحه دهشة كبيرة، إذ كانت أول فتاة تحضنه.

كانت كريستيا تمشي بانتشاء شديد، وكانت سعيدة جداً، كطفلة صغيرة، لكن بكثير من الجرأة، فكانت تمسك يده حيناً، وحيناً تضع يدها على كتفه، وكان يستغرب كل هذا.

حتما هناك شيء ما يحدث.

قاما بالجري قليلاً، ولعب تنس الطاولة، وشاهدها وهي تمارس بعض ألعاب الجمباز واللياقة البدنية التي تحافظ بها على جسمها الجميل وقوامها الرشيق.

وعندما عادا في ذلك اليوم لمقر السكن، ودعها عند بنايتها، ماداً يده لمصافحتها، لكنها قامت باحتضانه مجدداً، وطبعت على خده قبلة لطيفة ظل بسببها بلا نوم ليلة كاملة.

في اليوم التالي استيقظ متأخراً بسبب سهره، وحين ذهب لقاعة الطعام وجد كريستيا تنتظره؛ بمجرد رؤيتها له قامت تجري إليه واحتضنته بسعادة، لكنه هذه المرة قام بلف يديه على خصرها تاركاً لها بعض الحرية عندما ستبتعد.

ولأن ذلك اليوم كان يوم السبت فقد كانت فرصة مختار للخروج، ولكن هذه المرة برفقة الدليل السياحي المحلي كريستيا.

خرجا معا في جولة سريعة بالحافلة العامة إلى نهر «دنيبر» الذي استقلا عبره قارباً جماعياً في جولة نهرية مميزة بالنسبة لمختار.

هناك على القارب سألته كريستيا:

ـ هل تعلم لماذا كييف ليست كبيرة ومبهرة مثل موسكو؟

هز رأسه بعدم المعرفة قبل أن تواصل هي:

ـ لقد دمرت كييف بشكل كبير في الحرب العالمية الثانية.

جاء الألمان إلى هنا محملين بكل الأسلحة والقوة والغضب، لتستقبل هذه المدينة كل عنجهيتهم.

دمروها بشكل شبه كامل، وقاموا بقتل وأسر أكثر من نصف مليون جندي، لم يعد منهم أحد، معظمهم أوكرانيون.

ـ هل هناك فرق بين أوكرانيا وروسيا؟

ـ روسيا هي الحاكمة والمسيطرة.

نحن الأوكرانيون الذين نعيش هنا.

ـ لكنها بلاد واحدة ودولة واحدة.

ـ هذا ماتقوله الكتب فقط.

حينما احتل الالمان مدينتنا لمدة عامين كاملين، قاموا بتدمير كل شيء.

وعندما انسحبوا أعلنت موسكو أنها انتصرت بملايين الضحايا ومئات المدن المدمرة؛ لأن كل شيء ماعدا موسكو لا يهمهم.

كان كلامها مفاجئاً له، لكنه لم يكن يرغب بالاستمرار به، فهو لايدري المغزى من كلامها هذا، لهذا فقد آثر أن يلعب دور المدافع عن النظام، وهو كذلك بالفعل، لكن إظهاره كان مهماً في هذه اللحظة.

لهذا قال لها:

ـ دعينا نستمتع بمنظر النهر هنا.

لديكم بلد عظيم هو الأكبر والأقوى بالعالم كله، ويحمل مبادئ الاشتراكية العظيمة والقوية، والمثل الشيوعية السليمة.

اكتفت كريستيا بهز رأسها مع بعض الكلمات التي كانت تريد نطقها، إلا أنها فضلت الصمت، فبادرها هو سائلاً:

ـ ياله من نهر عظيم، إنه يصل للقرب من جامعتنا.

ـ لا، ذلك هو نهر "ديسنا"، يلتقي مصبا النهرين مع بعضهما غير بعيد من هنا.

عندما أنهيا الجولة النهرية فضلت كريستيا أن يمشيا معا عبر الشوارع وصولاً إلى الجامعة.

كانت تحب مدينتها بشغف كبير، وهي ترشد مختار لأسماء الشوارع والأبنية والبحيرات المتعددة، وبعض المعلومات التاريخية لبعضها، بينما هو كان ينظر إلى عينيها أكثر مما ينظر للأماكن التي تدله عليها.

كانت عيناها الزرقاوان مدينة أخرى، أو هي على الأقل ضفة أخرى للمدينة التي يفصلها نهر دنيبر، ضفة أخرى لم تتعرض للقصف والتدمير مثل كييف.

أحست كريستيا بما يدور في مخيلة مختار من مشاعر، لهذا فقد اقتربت كثيرا منه وهي تحتضن ذراعه وتضمها لصدرها، وسط نظرات بعض المارة حولهم، وهم يشاهدون شاباً أسمراً بشعر كث يمشي مع فتاة شقراء من أهل البلاد.

منظر غير مألوف بالنسبة لهم، ولم يشاهدوه على الأغلب طوال حياتهم.

أحس حينها بالتميز، لذا فقد كان يحتضنها حيناً أو يلف ذراعه حول خصرها أو يداعبها بحنان.

بينما هي تركت نفسها كلية للاستمتاع باللحظة مع

مختار الذي كان متحفظاً كثيراً معها.

عندما وصلا للجامعة كانا قد قطعا أكثر من سبعة كيلومترات وسط الشوارع والأزقة، لكن روعة البناء والتخطيط والأشجار والجو الجميل جعلت السير وسط تلك الشوارع متعة لذيذة.

تناولا طعام العشاء معاً في قاعة الطعام مع الكثير من النظرات الحميمية والعبارات اللطيفة، حتى انتهيا من الطعام فغادرا القاعة باتجاه سكنها، وكان مختار يظن بأنه سيودعها ويذهب مباشرة.

ظلا يحدقان ببعضهما طويلاً متماسكي الأيدي وهما واقفان قبل أن تقوم كريستيا بأخذ المبادرة وتقوم باحتضانه بقوة، وهو يربت على ظهرها بلطف قبل أن يبدأ بمداعبة خصلات شعرها الذهبية وصولا لرأسها، ضاما إياها بقبضة يده، حينها رفعت رأسها وقامت بتقبيله في فمه.

كانت القبلة سريعة جعلت مختار مندهشاً مثل أي قبلة أولى يمر بها المرء تكون سريعة، ولكنها تبقى مدى الحياة.

نظر إليها بلطف قبل أن يبادر هو هذه المرة بقبلة لم تكن سريعة على الإطلاق، حينها دعته كريستيا لغرفتها حيث أن شريكتها بالغرفة ذهبت لزيارة أهلها مع نهاية الأسبوع، ولن تعود قبل الأربعاء.

مرت الأيام الثلاثة سريعة بشكل لم ينتبه له مختار حتى أنه لم يحضر دروس الاثنين والثلاثاء الماضيين.

كانت أياماً مختلفة عن كل ما مرّ به، فض فيها بكارته اليمنية.

أيام ليس بها سواه هو وكريستيا التي نقلته لعالم آخر يشبهها بالجمال والأناقة والحب.

كانت كريستيا كما يشعر، هي الحب الأول، واكتشف أن حبه لسناء لم يكن سوى إعجاب شاب بفتاة قروية جميلة تمثل له النقاء الفطري، أما كريستيا فهي الحب الأول الحقيقي في حياته.

انقضت أسابيع تالية حتى نهاية الفصل الدراسي ونهاية دراسة اللغة الروسية بالنسبة لمختار.

كانت المعضلة الوحيدة أنه سيفتقد كريستيا طوال أيام العطلة الصيفية التي ستذهب فيها لزيارة أهلها، وكان يستعد لتوديعها ويهيئ نفسيته لذلك، لكنها فاجأته بدعوته للذهاب معها لزيارة أهلها والتعرف عليهم، أو بشكل أصح رؤية والدتها، أما شقيقها فهو في الجيش السوفييتي ولايعود إلا في أوقات نادرة، وشقيقتها قد انتقلت مع زوجها إلى موسكو، وزياراتهم تكون سنوية وقصيرة.

كان العرض مغرياً بصراحة، وكان متحمساً له،

فمفارقة كريستيا أصبحت صعبة جداً عليه، لهذا فقد وافق على طلبها، ولكن استأذنها في أن يبقى الليل وحيداً لكتابة بعض الرسائل، وشراء بعض الهدايا لأمه وأخته وإرسالها مع بعض الطلاب المغادرين إلى أرض الوطن.

كتب لوالدته كثيراً عن حنينه واشتياقه لها وللشقية أمينة، وأخبرها عن انتهاء العام الأول بنجاح، وأنه أصبح يتقن اللغة الروسية، كاتباً اسمها واسم شقيقته باللغة الروسية مع بضعة أسطر أخرى حتى يريهما قدرته، وأخبرهما أنه سيحاول قدر الإمكان زيارتهم في العام المقبل، وأخبرهم أن يبحثوا له عن أخبار صديقه سالم لدى بعض أبناء منطقته.

وكتب أيضا رسالة أخرى للرفيق مثنى معبراً له عن اشتياقه للجلوس معه والاستماع لنصائحه وأفكاره، وكتب له الكثير عن التجربة السوفيتية في إدارة البلاد وتطويرها وجعلها قوية وفق مبادئ الشيوعية والاشتراكية، متمنياً أن تسير بلاده في هذا الطريق الذي ستصل إليه مهما كانت العراقيل وقوى الظلام الرجعية التي تحاول النيل من هذا التقدم الكبير لبلادنا.

كان يدرك في قرارة نفسه أنه يناقض نفسه ويكذب، لكنه كان يشعر ببعض اللذة في أن يمارس الكذب من أجل مصلحته.

حينها أدرك بشكل كبير أن الكذب هو أساس السياسة، وأن السياسي يجب أن يناقض نفسه دون خجل من كشف كذبه، وقرر أيضاً أن يستعيد نشاطه السياسي والطلابي الذي كان يعمل به في عدن وأوصله لكل هذا.

في اليوم التالي انطلق مع حبيبته كريستيا لزيارة منزلها في مدينة فينيتسا الصغيرة.

كانت الرحلة مرهقة بعض الشيء في الحافلة العامة القديمة، لكنهم وصلوا مع المساء بعد يوم كامل من السفر.

ـ أمي هذا زميلي مختار في الجامعة، وهو من اليمن الديمقراطي من مدينة عدن.

قالت كريستيا لأمها وهي تقدمه قبل أن تقدم أمها له:

ـ مختار هذه أمي "يولينا".

كانت يولينا والدة كريستيا ماتزال محافظة على جمالها ورشاقتها، على عكس الكثير من النساء هنا.

كانت أطول من ابنتها كريستا، وتهتم أكثر منها بمستحضرات التجميل والإكسسوارات كسيدة وصلت إلى الخمسين من عمرها بالكاد.

رحبت بابنتها كثيراً، وكانت تبدو عليها مظاهر المرح، ورحبت به داعية إياه للدخول في إحدى الغرف التي ستكون

مـكان نومه طوال فترة إقامتهـم هناك، بينما هي ذهبت إلى المطبخ لإعداد طعام العشاء.

حـاول مختـار أن يضم كريسـتيا، لكنها أشـارت له بأن هذا ممنوع هنا، فوالدتها ستغضب كثيراً.

فقال لها مختار بغضب:

ـ ماهذا؟ لم تخبريني بهذا في كييف، لماذا جئنا إذن؟

ـ أعلم هذا، لكنك لايمكنك أن تأتي لمنزل أناس وتقبّل ابنتهم أمامهم.

ابتعدت عنه بدلال قبل أن تقول له:

ـ اترك لي هذا الأمر، وسوف أتدبره مع أمي.

اليوم ستجري معي جلسة تحقيق شاملة في غرفتها.

نظـر إليهـا مبتسـماً وهي تبتعـد قبل أن يشـير لهـا بإبهام كفه المقبوضة ماراً بها أمام رقبته بإشـارة الذبح، بينما هي اكتفت بالابتسامة والذهاب لوالدتها في المطبخ.

بعـد تنـاول العشـاء والاسـتمتاع بمـا أعدتـه لهـم السـيدة يولينا من طعام شـهي ومشـروبات مختلفة؛ استأذن مختار في الانصـراف لغرفتـه، بينما بقيت كريسـتيا مـع والدتها التي تستعد لإلقاء الأسئلة مثل أي أم في هذا العالم.

فـي اليـوم التالـي، نهض مختـار على صوت طرقـات باب

غرفته.

كان لوهلة يظن بأن صديقه يوناي هو الذي يطرق الباب في مقر سكنهما المشترك في الجامعة في كييف، لكنه أدرك مكانه فنهض ليجد كريستيا عند الباب جميلة ومشرقة كما هي دوماً وهي تقول له:

ـ صباح الخير أيها الكسول.

ـ صباح النور..

ماكل هذا الجمال.

لم أكن أعلم أنك تكونين أجمل في مسقط رأسك.

ـ أنا دوماً جميلة.

ـ أنا أكثر شخص بالعالم يعرف هذا الشيء.

ابتسمت كريستيا وهي تطلب منه النهوض وتناول الإفطار، فقال لها مختار بكسل شديد:

ـ مازلت أشعر برغبة بالنوم.

مارأيك بالدخول لكي تساعديني على النوم؟

ـ عليك الابتعاد عن هذه المحاولات الساذجة، أنت هنا في جمهورية يولينا التي تملك قوانينها الخاصة.

ـ لقد أخبرتني بالأمس أنك ستخبرينها وتمهدين للأمر.

ـ نعم، ولكن الأمر يحتاج لبضعة أيام.

ابتعدت عن باب الغرفة بطريقة مفاجئة وهي تقول:

ـ هيا أيها الكسول اليمني.

لدينا جولة خارجية بعد الإفطار.

أثناء تناول الإفطار كانت الأم يولينا تلقي الأسئلة على مختار في كل شيء يخصه، عنه وعن أسرته ومدينته، وماهي طموحاته وتطلعاته.

كانت الأسئلة عامة، لكن أكثر ماكان يشعر مختار بالقلق هي نظرات الأم وهي تنتظر الإجابات منه، وكأنها تدرس حركات يديه وعينيه وطريقته في الكلام.

كان يشبه خطيباً جاء يخطب فتاة من أبيها.

استمرت الأم بإلقاء الأسئلة بلا هوادة، وكان هو يجيب مباشرة مع شعوره ببعض الملل، فأخذ يستنجد بحبيبته كريستيا بعينيه، فنهضت وهي تقول مازحة:

ـ أمي، سنذهب أنا ومختار الآن، وفي المساء قومي بإكمال جلسة التحقيق.

ـ أنا فقط أتكلم معه وأكسر حدة الخجل، وأجعله يشعر بالراحة في البيت.

ـ أعلم يا أمي، ولهذا في المساء سيشعر بالراحة أكثر.

قالتها بسخرية فهمها هو.

غـادرت كريسـتيا مع مختـار في جولة قصيـرة في أرجاء مدينتها فينيتسـا الصغيرة والجميلة، وكانت تشـرح له بعض مناطقها وشـوارعها بحب كبير يوازي حبها لمدينة كييف، فسألها مختار:

ـ كيف يمكنك أن تحبي مدينتين في وقت واحد وبكل هذا القدر؟

ـ ولـدت هنا في فينيتسـا، ودرسـت الثانوية في كييف، لهذا أشعر بأنها أيضا مدينتي.

مثـل الذي يولد في مدينـة، ويعيش في مدينة أخرى طوال حياته، لكنه يظل يحب مسقط رأسه حتى وإن لم يزرها.

اكتفـى مختار بالصمت لبعض الوقت وهما يمشـيان قبل أن تتوقف كريستيا في أحد الأماكن على البحيرة المجاورة وهي تقول له:

ـ عندمـا كنـت أحدثك عن كييف والدمـار الذي حدث فيهـا في الحرب العالمية الثانية، وعـن حجم الضرر الكبير الذي عاشته أوكرانيا ككل في ظل هيمنة الروس.

ـ لا أتفق معك هنا.

الاتحاد السوفيتي قوي جداً، وهو قوي بوحدته وعنفوانه، قوي بروسيا وأوكرانيا.

قاطعها مختار عند هذا الحد.

ـ نعم هو قوي، لكنه رخو ومريض.

لم يستطع مختار أن يجاريها في كلامها، ولم يكن يعرف السبب، لكنه أحب أن يتقمص شخصية المعارض لها في قناعاتها أو ماتظهره من قناعات، فقال لها:

ـ هل تتخيلين أننا في اليمن الديمقراطي نحلم بتحقيق الوحدة مع الشطر الشمالي، ونقل المبادئ الاشتراكية التقدمية وبناء يمن واحد وقوي، وهذا هو ماعمدت إليه القيادات المتعاقبة في السنوات الماضية بدعم جبهات تحررية في شمال الوطن، أو بلدان أخرى، بل إن الرئيس الأسبق والمؤسس للاشتراكية لدينا في الشطر الجنوبي ينتمي لمنطقة تقع في الشطر الشمالي.

ـ ربما يكون وضعكم في اليمن مختلفاً عنا هنا في أوكرانيا، أو ربما أنتم أوهم، ستصلون لنفس النتيجة التي توصلنا إليها بعد سبعين عاماً من الضم والإلحاق القسري.

لم يتحدث مختار بأي كلمة فواصلت هي حديثها سائلة إياه:

ـ هل تتذكر حينما سألتك عن الحرب في بلادك؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب

ـ كم عدد الضحايا في تلك الحرب؟

لم يكن مختار يملك إجابة موثقة لهذا حاول أن يضع رقماً خيالياً من رأسه..

فقالت هي:

ـ ألف، ألفان، عشرة..

لن يتجاوز هذا الرقم المبالغ به على أية حال.

قبل أكثر من عام من اليوم انفجر مفاعل «تشيرنوبل» قبل فترة ليست بالبعيدة على بعد كيلومترات قليلة من كييف بسبب الإهمال والغباء، وأكثر من مائة ألف شخص تم تهجيرهم من المناطق حول المفاعل لم يعودوا حتى اللحظة.

صمتت لوهلة من الوقت وهي تحاول كتم صوت الاختناق في حلقها قبل أن تواصل حديثها:

ـ وصل الضحايا لعشرات الآلاف.

الدولة أعلنت أنهم بضع مئات فقط، ولم تعترف بالحادثة إلا بعد أربعة أشهر، لكنِ المرضى المصابون بسرطان الغدة الدرقية يموتون بشكل مستمر في أنحاء المنطقة، المئات يموتون يوميا حتى الآن، هل تتخيل حجم الضرر؟ ماذا تساوي هذه الكارثة أمام ماحدث لديكم من حرب تافهة.

ـ الحروب ليست تافهة.

يبدو أنك متأثرة حبيبتي من هذه الذكريات.

قام باحتضانها أما هي فوضعت رأسها على كتفه وقالت:

ـ أضف إلى ذلك، هذا الاتحاد القوي كما تسميه، قتل عشرة مليون أوكراني في سياسات التجميع الزراعي الذي أدى لمجاعة شاملة في ثلاثينات القرن هذا.

رفعت رأسها من فوق كتفه وهي تنظر بعينيه وتقول:

ـ هذه المجاعة اسمها "هولودومور»، كما أدت محاربة المثقفين والكتاب لمقتل أكثر من 600 ألف أوكراني.

كل هذه الجرائم في عهد «ستالين « فقط.

ـ بصراحة، لا أعرف ماذا أقول لك؟ أنا أتيت من خلفية وحدوية، بلدنا تأسس قبل سنوات قليلة - ليس مثلكم - رغم تاريخنا العريق، ولكن أيضاً على أنقاض سلطنات وإمارات ومشيخات تصل لأكثر من 28 كياناً مع شمال الوطن، لم يكن يجمع بينها أي شيء سوى بعض التواصل مع الاستعمار البريطاني.

نحن أيضا نسعى للتوحد مع الشطرين، والرؤساء دائما يجتمعون، ولولا بعض الأحداث الدولية والاغتيالات المخطط لها، لكانت الوحدة قد تمت بالفعل منذ سنوات طويلة.

ـ بالتأكيد هناك اختلافات بيننا عرفناها في عصر

الاتحاد السوفييتي.

أما أنتم توحدوا لتعرفوا بعضكم.

لم يرغب بمواصلة الحديث أكثر في هذه النقطة بالذات.

في بلد كالاتحاد

السوفيتي قد يكلفه هذا الكلام عنقه، لذا فقد قام باحتضانها مجدداً وبضمها إليه وراح يقبلها على رأسها وهو يقول:

ـ الآن، ووسط كل هذه السياسة والمجاعات والتدمير، ماهو موقف السيدة يولينا مني؟

ضحكت كريستيا بعمق وهي تضربه على صدره وهي تقول:

ـ اعتبر أن أمي هي ستالين آخر سيقضي عليك ويرحلك إلى بلدك.

ـ أنا بصراحة أحب ستالين، وقد تربيت على صوره في عدن، كنت أراها في كل مكان نذهب إليه مع بقية القادة الكبار.

ـ أنا ألاحظ أنكم اشتراكيون أكثر من الاشتراكية نفسها.

أنا إلى الآن لم أجد اشتراكياً واحداً في أوكرانيا، بينما

أنتم جميعكم اشتراكيون.

ـ نحن هكذا دوماً كيميين، نتعمق بكل شيء، ونؤمن بالفكرة لحد التماهي، فنغوص بها أو نغرق.

ولا أعرف هل نتمكن من مشاهدتها بشكل جيد من حيث نحن أم أننا نفقد الرؤية؟

ـ أمي اليوم ستقوم بإغراقك إذا حاولت لمسي.

قالتها وهي تنهض عنه وتجري مبتعدة عنه قبل أن يقوم باللحاق بها.

قضى مختار في منزل كريستيا أسبوعين كاملين قبل أن يقرر العودة إلى كييف، وقد وعدته بأنها لن تتأخر كثيراً، وستلحقه بعد أن تشبع منها أمها.

لقد فضل العودة بدلاً من البقاء ضيفاً في منزل كريستيا وسط مراقبة أمها الشديدة له، حتى أنه لم يستطع أن يجتمع بها ولو في حديث جانبي تافه سوى لمرة واحدة، عندما ذهبت الأم لاجتماع سيدات القرية.

كذلك قرر العودة لمراجعة دروس اللغة الروسية بدلاً من الاستماع لهمسات اللغة الأوكرانية بين كريستيا وأمها، والاستعداد لبدء الدراسة الجامعية التي يتشوق لها بشكل كبير.

مـرت العطلـة سـريعاً سـوى مـن بعـض الاتصـالات مـن كريسـتيا التي كانت تجريها بهاتف إدارة السكن الداخلي فيسـتدعونه للنزول، وقام بكتابة الرسـائل مرتين خلال تلك الفترة لوالدته وأستاذه الرفيق مثنى وكذلك للأستاذ قاسم.

مـع نهايـة العطلـة الصيفيـة جاء بعـض الطلاب مـن عدن لمواصلـة الدراسـة، مـع بعـض الطـلاب الجـدد، وكان من نصيبه بعض الهدايا والرسائل من والدته بخط شقيقته أمينة، وكذلك رسـالة مقتضبة من الرفيـق مثنى متضمنة طالباً منه العودة إلى الوطن لزيارة الأهل نهاية العام الدراسي.

كان سـعيداً بهـذا الطلب لدرجة كبيـرة حتى أنه قرر أن يسـهر مع كريستيا في أحد البارات القريبة من مقر الجامعة كاحتفاء بهذه المناسبة.

ظلت هي تتأمله قبل أن تقول له:

ـ سـأخبرك بنكتـة تناسـب الجـو الذي نحن فيـه الآن في البار.

كان هناك مواطن يقف في طابور لشراء الخمر، وكان الطابور طويلاً بسـبب الفقر وانعدام كل شـيء قبل أن يطلب من الشخص الذي يقف خلفه أن يحتفظ بمكانه ريثما يذهب لقتل غورباتشوف، ثم يعود بسرعة.

بعد لحظات عاد الرجل بسـرعة، فسـأله الشـخص الذي

في الطابور:

هل قمت بقتله بهذه السرعة؟! فقال له:

لقد اكتشفت أن الطابور هناك أطول من هنا.

ضحك مختار بحذر شديد، فلاحظت هي هذا ثم قالت:

- اضحك يا رجل، هذه النكتة مشهورة في الشارع والجميع يعرفها، هل تريد نكتة أخرى؟

- لا، يكفي هذ اليوم..

أخبريني غداً.

تفهمت كريستيا رغبته فسألته قائلة:

ـ هل تحب وطنك يا مختار؟

ـ بكل تأكيد، نعم.

ـ ماذا يشكل لك الوطن؟

ربما كانت المرة الأولى لمختار التي يسمع فيها هذا السؤال دون أن يملك أي فكرة مسبقة عن ماهية الإجابة، لذا فقد أخذ يكرر:

ـ الوطن..

الوطن.

ـ نعم.

قالت كريستيا تحثه على الإجابة.

ـ بصراحة، لم أفكر من قبل بهذا، لكن الوطن بالنسبة لي هو الهوية والانتماء، هو أنا.

أنا أشبه بالشجرة التي يقاس عمرها بعدد لفات اللحاء وهي تنمو، اللحاء هذا هو الوطن وهو بداخلي.

الوطن هو لغتي وأرضي وقوميتي وفكرتي.

ـ جميل جداً..

هل ستفكر في يومٍ ما أن تستقر في كييف أو حتى موسكو؟

ـ لا، لم أفكر بهذا مطلقاً، صحيح أن موسكو وحتى كييف أجمل وأرقى، لكني أرى عدن، بل عموم وطني، أو حتى اليمن في عينيّ أجمل من كل الأرض.

ـ هل هذا سبب سعادتك بالعودة لزيارة الأهل؟

ـ هل أنتِ حزينة؟

نهضت كريستيا من مقعدها في البار مشيرة إليه بأن يتبعها للخارج للانصراف، ولحق بها بعد أن دفع قيمة الفاتورة، فقالت له كريستيا بمجرد وصوله.

ـ نعم أنا حزينة بعض الشيء، لكن الوضع مازال مبكراً للتفكير بالحزن، بعد عام سوف أحزن.

ضحكت بقوة وهي تسير بانتشاء من أثر الكحول، وكذلك من أثر نسيمات الصيف الأوكرانية الخفيفة التي أخذت تهب حولهما.

ـ الوطن هو كما قلت وأكثر، لا يستطيع أي شخص أن يمنحك وطناً بديلاً، أو يوهمك بأن قطعة أرض بعيدة ستكون وطنك دون أن تشعر بالانتماء، دون أن ترى جارك مثلك..

يشبهك، ودون أن ترى شخصاً آخر لا تعرفه في آخر الوطن يشبهك أيضا، الوطن هو الأمان والحرية، الوطن هو أن تمتلك بيتك وكرامتك.

توقفت وهي تنظر إلى مختار متسائلة:

ـ هل فهمتني؟

قال لها مختار بملامح حرص أن تكون جدية:

ـ في الحقيقة لا، يبدو أنك تتحدثين بلغة روسية قديمة لم أفهمها.

كانت كريستيا تشعر بالإحباط من جوابه قبل أن تسمعه يقهقه بصوت عالٍ، فأدركت بأنه يمازحها لتقول له بدلال:

ـ أيها المخادع، أنا في قمة اندماجي بالفكرة وتوصيلها وأنت تلهو معي..

سأضربك.

استقبل ضربتها الخفيفة على صدره وقام بضمها وهو يقول:

ـ دعينا نمشي قليلاً بهدوء على أرض وطنك، فلربما نمشي معاً على ثرى وطني ذات يوم.

بدأ العام الدراسي بالجامعة بحماس كبير من مختار بالاجتهاد بالدراسة، بالإضافة إلى عودته للنشاطات الطلابية التي بدأ يتعرف من خلالها على القيادات الحالية لاتحاد طلاب اليمن الذي يضم طلاب الشطرين، وكانت لدى بعضهم توصيات بضمه إليهم، وهو ماحدث حيث استقبله رئيس اتحاد الطلاب «عبدالكريم « وهو من تعز وعضو في الحزب الاشتراكي اليمني، وهو شاب وسيم ورياضي حيث منحه منصب السكرتير الإعلامي للاتحاد بدلاً من السكرتير السابق الذي غادر إلى صنعاء.

كان المزيج الطلابي هنا أكثر اتساعاً منه في عدن فهو يضم الكثير من أبناء الشطرين، بالإضافة لاختفاء تلك المناطقية أو العنصرية التي كان يسمعها في المرحلة الثانوية.

هنا الطلاب أكثر انتماءً، وكأن البعد يهذب النفوس ويزيد من الانتماء.

كان مختار يشعر بأن مسألة الاندماج والانتشار أكثر

صعوبة هنا، أو ربما أنه فقد خاصية التعاطف التي كانت تميزه بسبب إعاقة يده، لهذا فقد قرر أن يسخّر هذه الخاصية لمصالحه عند الضرورة.

كان يخبر الجميع بموضوع إعاقته والصعوبات التي كان يواجهها أثناء حياته وبعد العملية الجراحية، وبقائه أربعة أشهر في المستشفى، وعام كامل في التمرين والتأقلم مع وضع يده، وكان يري بعض الطلاب صور الأشعة وصوره الشخصية.

نجحت الخطة إلى حد ما، فقد انتشر الخبر وسط الطلاب وأصبح الكثير منهم يأتي ليسأله أو يسترق النظر ليده التي كان يتعمد أحياناً وضعها بشكل معين حتى تبدو أنها غير طبيعية، فأصبح الجميع يستقبله باهتمام، وأصبح معروفاً لدى جميع الطلاب اليمنيين والعرب أيضاً، وأصبح يتوسط لدى البعض في حل مشاكلهم أو مساعدتهم ببعض الأمور الخاصة، ولم يكن يبخل على أي طالب بأي شيء.

واستغل الفرصة في شعبيته المتزايدة، ومعرفة بعض أعضاء إدارة الجامعة بأمره أن يتوسط لهم في إقامة فعالية يمنية راقصة وثقافية، فأبدت موافقتها بشرط عدم الخوض في أية أمور خارج الجامعة والدراسة، وفي اجتماع اتحاد الطلاب أخبرهم بالفكرة التي لاقت استحسان الجميع

وأوكلوا له مهم تنظيم الفعالية وترتيبها.

اختار مختار يوماً مميزاً وهو يوم 26 سبتمبر يوم الثورة في شمال الوطن ضد الإمامة المتخلفة موعداً لإقامة الفعالية، وسوف تستمر لعدة أيام حتى موعد 14 أكتوبر يوم الثورة في جنوب الوطن ضد الاستعمار البريطاني والرجعية، وقد أيده الجميع بهذا، فقد بادر لعمل إعلانات عن نشاطات شعرية وروائية، وأنشطة أخر فنية استعراضية وتمثيلية وغنائية.

كان عدد الطلاب كبيراً يسمح بإقامة فعاليات مميزة ومتنوعة وفق عدد الطلبات التي تم تسجيلها بالفعالية، وفي الموعد المحدد بدأت الفعاليات بشكل عظيم حضرها عدد كبير من الطلاب العرب والروس والأجانب، وأظهرت حجم التنوع الثقافي والفني واختلاف الرقصات والألحان، وألقيت الكثير من القصائد بالفصحى والعامية.

كانت هناك فتاة يمنية ألقت بعض القصائد بالفصحى لفتت نظره بجمالها وثقافتها كانت تدعى «عبير»، وبعد إحدى الفعاليات التي ألقت فيها قصيدتها ذهب إليها مباشرة وقال لها باهتمام:

ـ قصيدة جميلة جدا.

ـ أي واحدة منهن تعني؟

ضحك مختار ببلاهة وهو يظن أنها تختبره فقال:

ـ تلك التي تتحدثين فيها عن الوطن والحب.

ـ أها..

شكرا لك.

أحس بأنها مغرورة أو خيل إليه هذا، لكنه حدّث نفسه بأنها فتاة يمنية جميلة وسط كل هؤلاء الشباب لا بد أن تحصّن نفسها ببعض الأسوار العاجية.

ـ أنا لا أجامل مطلقاً، لدي اهتمام بالشعر وحاولت كتابته لكني فشلت، تخصصي العلمي منعني عن أدرس الشعر.

ـ جميل جداً أستاذ مختار.

ـ لا داعي لمخاطبتي بكلمة أستاذ، أراك في وقت لاحق.

انصرف وهو ينصت لها لعلها تقول وداعاً، لكنه لم يسمع أي شيء مطلقاً.

بعد انتهاء الفعاليات كسب مختار شعبية كبيرة جداً، وأصبح هو موئل الطلاب في كل شيء يخصهم حتى مع إدارة الجامعة التي أصبح هو الوسيط بينها وبين الطلاب، وأصبحت تصرف له بعض المخصصات الخاصة، وكانت كريستيا الوحيدة الغاضبة من انشغالاته ومشاغله في اتحاد الطلاب ومراجعة دروسه، فلم تعد تجتمع به منفرداً إلا نادراً.

بينمـا هو لم يكن يفكر بشـيء سـوى دراسـته الجامعية وإدارة شـؤون الاتحاد، وقد استفاد بشكل كبير من تجاربه وخبراتـه في الطلائع الكشـفية واتحاد شـباب طلاب اليمن الديمقراطي، وبعض النشـاطات الحزبية التي كان يقوم بها بشكل غير رسمي مع الرفيق مثنى وغيره.

في عطلة أعياد السـنة فاجأ كريسـتيا بعرض خاص وهو الذهاب إلى موسـكو لقضاء ثلاثـة أيام على نفقته الخاصة، لكنه فوجئ بها تستقبل الأمر ببرودة:

ـ إنها باردة جدا يا مختار.

ـ هل هذا هو السبب الوحيد؟

ـ ماذا تعني؟ قالت كريستيا بحدة.

ـ لا أعنـي أي شـيء، رحلـة عادية، وأريـدك أن تكوني معي، والبرودة هناك لا تختلف عن هنا.

ـ موسـكو لم تعد كما كانت عندما غادرتها، عمليات الإصلاح الاقتصادي التي يرعاها غورباتشوف طحنت الناس، البلاد تسير بسرعة كبيرة نحو الانهيار.

ـ بغض النظر عن كل هذا، الرحلة مجانية وأريد الذهاب إليها.

ـ مجانية؟

ـ ليست مجانية بالمعنى الحرفي لكن الجامعة أعطتني بعض المال.

نظرت إليه كريستيا بدهشة قبل أن تسأله:

ـ ولماذا تمنحك الجامعة مالا؟

ـ أخبروني أنها مكافأة تشجيعية على نشاطاتي، وأخبروني أنهم يدفعون مثلها لبعض الطلاب من مواطني الاتحاد السوفييتي وغيرهم وليست لي حصرياً.

ـ هدفهم هو توجيه الطلاب ومعرفة أخبارهم بالاستفادة من الناشطين أمثالك.

ـ نعم، أعلم هذا، وفي الأخير أنا لم أقم بشيء خاطئ من أجلهم، أو ضد الطلاب.

أخذ ينظر إلى بعيد وهو يواصل حديثه:

ـ الشيء الخاطئ الوحيد هو أن عرضت عليك هذا العرض المغري.

نظرت إليه بدهشة قبل أن تشاهد ابتسامته فتقول بحدة:

ـ هكذا إذن، دع شخصاً آخر يذهب معك.

ـ اخترت بالفعل شخصاً آخر.

ـ من؟

قالتها بغضب وهي تنظر إليه قبل أن يقول لها بهدوء:

ـ أنتِ هي الشخص الآخر أيتها الغبية.

لم تكن تعرف كريستيا ماتقول له في تلك اللحظات سوى أن تضربه بلطف على رأسه، وهي تشير برأسها إشارة الموافقة على عرضه، وبدء الاستعداد للرحلة مع نهاية العام.

في موسكو استعاد مختار ذكريات الوصول والدهشة وألم العملية.

كان يشعر بزغزغة غريبة في يده عندما استعاد تلك المشاعر، كل شيء مرتبط ببعضه.

موسكو ليست الحسناء الوحيدة هذه المرة، فلديه كريستيا التي تشبه موسكو بجمالها وألوانها وبرودتها في أغلب الأوقات.

وقد أصر مختار على زيارة الطبيب للسلام عليه وأخذ هدية له، وكان الطبيب مندهشاً من تصرفه الذي يحدث للمرة الأولى، وقام بمعاينة يده وفحصها وأخبر مختار بأن عليه الاهتمام أكثر بالتمارين الرياضية وتقوية العضلات والأعصاب حول العظام، أما باقي الأمور فكل شيء على ما يرام.

كانت كريستيا حريصة على جعل مختار يشاهد انكسار الناس والصعوبات الاقتصادية التي تواجهها موسكو على وجه التحديد لكونها العاصمة وأكبر المدن.

هنا سيرى الناس من كل أنحاء البلاء.

سوفيتيون حقيقيون بلا رتوش الإعلام والبروباجندا الحكومية على مستوى البلاد.

تذكر هو كلمات الرفيق مثنى في عدن وهو يسمع صوته في أذنيه مسترجعاً إياه:

ـ نحن الآن في منتصف العام 1985 م، وهي تشهد تحولات عظمى، أريدك أن تكون هناك للاستفادة القصوى، فزمن التحولات هو أفضل الأزمان للتعلم واكتساب الخبرة.

ـ ترى هل كان الرفيق مثنى يعرف طبيعة التحولات ومدى ضررها على المواطن البسيط، أم أنه كان غارقاً في تصديق الأيدلوجيا فلا يرى سواها من الأفكار والحقائق؟ هل ستبقى روسيا قوية في زمن التحولات هذا؟ لابد أن تبقى وتقود العالم التقدمي نحو العدالة والبناء.

هكذا قال مختار في نفسه، رافضاً في الوقت ذاته أن يصدق خزعبلات كريستيا، وأن عليه أن يستمتع بوقته في موسكو مع حبيبته كريستيا التي دلته على أماكن جديدة ومختلفة بحكم اللغة والمعرفة.

زارا العديد من الأماكن السياحية والمتاحف، وشاهدا هناك جثة الزعيم الخالد «لينين» المحنطة في ضريحه بالساحة الحمراء الشهيرة.

كان نائماً في تابوت زجاجي، لكن بكل قوته وبهائه كما كان يراه في الصور منذ أن كان طفلاً صغيراً في عدن.

بعد انتهاء أيام الإجازة، عاد بالقطار إلى كييف مع كريستيا وفي ذهنه فكرة واحدة فقط، هو أن هذه البلاد لن تنهار، هذه البلاد وجدت لتبقى وسوف تنهض رغماً عن أنف الإمبريالية وأعداء التقدمية.

موسكو هي قبلة عواصم العالم، وكل العالم الحر ينظر إليها كعاصمة له، لهذا ستبقى دائماً وأبداً بعيداً عن نظرة كريستيا التي تنطلق من أسباب مناطقية وجغرافية محدودة.

هذا الوطن الكبير الواسع الممتد على معظم الكرة الأرضية يسعى لتوحيد العالم، فكيف ينحصر تفكير بعضهم في منطقتهم أو نطاقه الجغرافي الضيق.

هناك خطأ ما في تفكير كريستيا ولن تكون لوحدها، سواء في أوكرانيا أو باقي الجمهوريات السوفييتية، أو حتى في روسيا التي لديها أفراد يفكرون بنفس المنطق، كما سمع من صاحب المطعم الذي تناول فيه الطعام في اليوم الأخير مع كريستيا وهو يلقي باللوم على الحكومة في المعاناة الاقتصادية؛ لأنها تسرق الأموال من جيوب الناس في موسكو لتضعها في أفواه المواطنين في باقي الجمهوريات

باسم الوحدة والهوية.

أدرك أنه في وقت الضعف يصبح كل شيء خاطئاً، حتى المبادئ تكون خاطئة بلا قيمة ولا أهمية، ويصبح حاملو تلك المبادئ إما خونة أو كاذبين أو مطاردين بتهمة التفكير.

في الفصل الثاني، كانت الأمور تسير بشكل جيد مع كل الطلاب، إلا أنه لاحظ أن الطالب حمود الذي التقاه في بداية قدومه لمقر السكن الجامعي، كان منعزلاً بعض الشيء، ويغيب في أوقات كثيرة عن الطلاب ولا يختلط بأحد.

كان قلقاً بعض الشيء من هذه التصرفات، لكنه ربما رآها طبيعية رغم عزمه على محادثته في الوقت المناسب.

في ذلك الفصل كانت هناك مفاجأة في انتظاره، حينما استدعته الإدارة لمكتب رئيس الجامعة، وهناك بمجرد دخوله شاهد الكثير من الوجوه لأشخاص يمنيين يبدو أنهم من المسؤولين، أدرك ذلك من ملابسهم «السفاري» التي يرتدونها في جنوب الوطن، وكان بينهم الرفيق مثنى.

كانت المفاجأة كبيرة والاستقبال حاراً.

كان الرفيق مثنى على رأس وفد سياسي من عدن لزيارة موسكو، والتباحث حول بعض الأمور السياسية والعسكرية وتبادل الخبرات، وفي نهاية الجولة أصر الرفيق مثنى على

زيـارة كييف لمقابلة مختار والتحدث إلى الطلاب، في جولة قصيرة.

ـ أنا سـعيد جداً لحضورك إلى هنا لمقابلتي، هذا شـرف كبير لي أيها الرفيق.

ـ أنت ولدي السياسي يا فتى، لاتنسَ هذا الأمر.

ـ أتشرف بهذا، وهو وسام أضعه على صدري.

ـ لقـد أخبرونا هنـا عنك وعن تميزك خلال فترة وجيزة، ورئيس الجامعة يتوقع لك الأفضل.

ـ هذا بفضل توجيهاتك واهتمامك أيها الرفيق.

ـ جميل جداً..

هل نستطيع مقابلة الطلاب والاجتماع بهم خلال ساعة قبل الانصراف؟

ـ ألن تبقوا هنا طويلاً؟

ـ بصراحـة، لـم تكـن الزيـارة مخططـاً لهـا، لكنـي أصررت عليها لكي أراك ونجتمع بأبنائنا والسـماع منهم عن احتياجاتهم وأمورهم.

وربت على كتف مختار وهو يقول:

ـ هل تستطيع تجميع الطلاب خلال ساعة؟

أجاب مختار بحماس:

ـ خلال دقائق سيكون كل الطلاب في قاعة الاجتماعات أيها الرفيق.

انطلق مختار بسرعة لإبلاغ الطلاب، فأخذ يبلغ في كل طابق شخص واحد يتولى هو مهمة إبلاغ البقية في طابقه، وهكذا يضمن السرعة وعدم نسيان أحد.

خلال نصف ساعة كان كل الطلاب اليمنيين من الشطرين في قاعة الاجتماع ينتظرون لقاء الوفد السياسي من جنوب الوطن الذين دخلوا إلى القاعة محيين الجميع، وأخذ الرفيق مثنى مع شخصين آخرين مرافقين له أماكنهم في منصة الإلقاء، بينما أخذ البقية مقاعدهم في مقدمة الصفوف وكذلك مختار، إلا أن الرفيق مثنى طلب منه أن يجلس إلى جوارهم في المنصة أمام الحضور.

كان مختار يشعر بالزهو والتفرد من هذه اللفتة الكريمة من الرفيق؛ جعلت كل الطلاب ينظرون إلى مختار بالكثير من الاحترام فيما بعد، خصوصاً أن زميلته عبير كانت من ضمن الحضور.

بدأ الرفيق مثنى كلامه بالتحية و التقدير للطلاب اليمنيين بشكل عام، وحاثاً إياهم على الاهتمام بالتعليم والالتزام بالمبادئ والمثل التي تقوم عليها هذه الدولة التي تستضيفهم ولاتبخل عليهم بأي شيء، حتى يكونوا متميزين، وبانتظار

عودتهم لوطنهم والإسهام ببنائه، وتكريس خطوات الوحدة بين الشطرين وصولاً إلى تحقيقها في يوم ما، وهذا اليوم لن يطول مهما حاول النظام الرجعي في الشطر الشمالي أن يؤخر هذا الحلم، لكن شمس الحرية و التقدم سوف تشرق يوماً على صنعاء و تعز و الحديدة، كما أشرقت منذ عقدين على عدن و لحج و المكلا.

وبفضل جهود الاتحاد السوفييتي سوف نستمر وننهض معا.

كما حرص على توجيه الشكر لاتحاد الطلاب ولمختار شخصياً لأسباب شخصية بينهما.

نهض الطلاب للتصفيق إعجاباً بهذه الكلمة الحماسية المميزة، قبل أن يأذن الرفيق للطلاب بإلقاء الأسئلة التي كانت بمجملها سياسية عن الوطن والوحدة والاشتراكية؛ تعكس اهتمامات الطلاب واشتياقهم للوطن، وفي ختام اللقاء شكر الرفيق مثنى صديقه مختار مجدداً أمام الطلاب على جهوده وتميزه.

أصبح مختار بعد زيارة الرفيق في مستوى آخر جداً، فجميع الطلاب شاهدوا الاهتمام والتقدير اللذين حصل عليهما من الرفيق المسؤول، ومستوى المعرفة والصداقة بينهما، فأصبح الجميع يعامله باحترام أشبه بالخوف،

وكذلك رئاسة الجامعة التي صارت تلقي عليه بمسؤوليات أكبر في توجيه الطلبة وحل مشاكلهم، وبالتالي الحصول على المزيد من الأموال والمنح المالية، والتي كانت قليلة، لكنها بالنسبة إليه كطالب مهمة وتشعره بالتميز.

ومع قرب نهاية العام كانت صديقته كريستيا غاضبة منه؛ لأنه لم يعد يهتم بها، بل وأصبحت أكثر تشدداً في طرح آرائها السياسية الخاصة بأوكرانيا، وعن جشع روسيا في السيطرة ونهب البلاد، وهو مالم يكن يعجب مختار الذي أخبرها مراراً وتكراراً بأنه قادم من بيئة وحدوية في عدن.

البلد بأجمعه يحلم بتحقيق الوحدة وإعادة توحيد الأرض اليمنية العريقة، بالإضافة إلى أنه يرى الاتحاد السوفييتي نموذجاً يحتذى في سبيل التوحد والقيم الاشتراكية والتحررية في العالم كله.

في نهاية المطاف لم يعد يراها كثيراً، وأصبحت تجتمع كثيرا بالطلبة الأوكرانيين في الجامعة، وغدت الأمور بينهما شبه منتهية أو هي ميتة بانتظار إعلان الوفاة فقط.

في أحد المساءات وهو يصعد إلى غرفته في السكن شاهد باب غرفة زميله حمود مفتوحاً إلى حد ما ، فخطر بباله الذهاب إليه والتحدث معه.

توجه إلى هناك وأخذ يطرق الباب شبه المفتوح بلطف دون

أن يـرد أحد ، لهـذا فقد قام بفتح الباب بهدوء لعل حمود ينتبه إليـه ، لكـن لم يكن هنـاك أحد بالمرة ، فدخـل إلى الغرفة بخطوات صغيرة وسـط الظـلام قبل أن يلمحه في آخر الغرفة في زاوية مظلمة يبكي وهو متقوقع على نفسه فوق الأرض.

عـاد لإغلاق الباب وذهب إليه ، ثم جلس بجواره ، ويبدو أن حمـود لم يكن منتبهاً لكل هـذا ففوجيء بمختار يحتضنه ، فسأله حمود فزِعاً :

ـ منذ متى وأنت هنا؟ وكيف دخلت؟

أحب مختار أن يلطف من الأجواء قليلاً

ـ يـا رجـل ، أنـا هنا منـذ الصباح وأنـت تبكـي وتولول ، والباب كان مفتوحاً على مصراعيه.

ـ عفواً لم أكن منتبهاً.

ـ لا بأس ، ولكن ماذا حدث.

هل أنت بخير؟

ـ لا ، لا شيء ، أنا بخير؟

قال حمود بهلع كبير وهو يمسح دموعه وأنفه بكم قميصه

ـ هـل تراني غبيـا؟ البكاء بهـذه الصـورة دليل علـى وجود معضلة كبيرة جداً.

ـ قلت لك لا شيء يا مختار ، هذا يكفي.

ـ أنـا أراك منذ فترة وأنت منعزل ولا تتحدث مع الجميع، وفي حالتك يجب أن أبلغ الإدارة؛ لأنه لو حدث شيء ما سأكون أنا الملام في هذه الحالة، هل تريد أذيتي؟ أم ستخبرني ونحل مشكلتك بهدوء؟

التفت حمود بفزع إليه وهو يصيح:

ـ الإدارة؟ لا، لا، سأخبرك.

ثم اعتدل في جلسته وقال بصوت قوي:

ـ لكن عدني بأن يبقى الأمر سرّاً.

هزّ مختار رأسه بالإيجاب، فاستطرد حمود سائلاً:

ـ هل تصلي أنت يا مختار؟

بـدت على مختـار علامات الدهشـة والحيرة من سـؤاله، لكن هزّ رأسه بالنفي لكي يترك له فرصة للاستطراد:

ـ سيهديك الله يا صديقي الطيب.

سـبب بكائي هو مايتعرض له إخوتنا في أفغانستان على يد الجيش السوفيتي، وأوضاع المسلمين في مناطق أخرى من العالم، وفي «فلسطين» منذ عقود واليهود يذبحونهم ويدمرون بيوتهم، ونحن نتفرج.

بـدا أن مختـار أصيـب بالصدمة مـن كلام زميلـه قبل أن يقول:

ـ مادخلنا نحن بهذا؟ هل هذا يجعلك تبكي؛ لأن بلداً يهاجم بلداً آخر.

ـ إنهم مسلمون يا أخي، إخوتنا في الله يقتلون بكل وحشية منذ سنوات.

كانت هذه الكلمات جديدة على مداركه، كلمات مثل الرفاق وزملاء الكفاح والمبادئ هي التي كانت مسيطرة على قاموسه في التخاطب أو الكتابة، لكن كما يبدو أن هناك نضالاً آخر وقواميس أخرى موجودة على أرض الوطن.

أخرجه من شروده صوت زميله حمود وهو يتحدث:

ـ نحن مسلمون، يجمعنا الدين يا أخي، كيف نرضى أن يقتل إخوتنا من قبل جيوش كافرة.

ـ لا أخفيك، هذه المصطلحات والكلمات جديدة علي، لكن الذي أعرفه أننا في هذه البلاد لكي نتعلم.

هذه البلاد تؤمن بمقولة "الدين أفيون الشعوب"، وحتما لديها مصالحها وأسبابها في حرب أفغانستان.

ـ لا تنسَ يا صديقي أني أدرس الفلسفة، كارل ماركس حينما قال هذه الكلمة لم يهتم بمحاربة الدين أكثر من محاربة استخدام الدين كوسيلة للتخدير ووضعه شماعة للألم أو للدموع.

الإسلام دين يحث على القوة والعمل.

ـ لهذا كنت تبكي؟

قالها مختار بصوت أشبه بالتحدي

ـ أنا أبكي؛ لأني عاجز في هذا الوقت، لكني لن أبقى عاجزاً طوال حياتي، لينين لم يقم بهدم الكنائس، وستالين لم يحارب المسيحية، هم فقط حاصروها لنشر مبادئهم، لديهم «إيدلوجية» سياسية مقابل «إيدلوجية « دينية ستعمل على التقليل من انتشارها، لكنهم حاربوا الإسلام وارتكبوا مجازر بشعة في الدول والمناطق المسلمة التي احتلوها.

ـ هذا كلام خطير في هذه البلاد، وفي دولة ذات قبضة فولاذية، أحذرك من هذا.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ لن أفعل أي شيء بالطبع، كلامك مخيف يا عزيزي، كل ما أريده منك حالياً أن تخرج إلى المجموعة وألا تبقى وحيداً.

ـ هل ستخبر الإدارة؟

ـ بالطبع لا، ليست لدي مشكلة مع الدين، أنا أحترم هذا البلد وقوانينه، عندما تكون في بلد ما يجب أن تحترم قوانينه أو ترحل عنه، إذا تعارضت مع قوانينك الخاصة، أنت

مجرد طالب جامعي لن تستطيع أن تغير العالم.

ـ "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده"

ـ ماذا ستفعل؟ عِدْني فقط ألا تصنع أي مشكلة هنا، يكفي أنك لم تحضر اجتماع الرفاق مع الطلاب اليمنيين حينما زارونا.

نظر إليه حمود بدهشة:

ـ هل عرفت بأني لم أكن موجوداً؟

ـ نعم، هذه مهمتي، أن أجمع الطلاب، وعرفت غيابك لكني فضّلت الصمت، لذا عِدْني ألا تصنع مشكلة هنا.

ـ أعدك بهذا، ليس من الإسلام إيذاء المسلمين.

ـ سأتركك لصلاة العشاء، ولا تخبر أي شخص بقناعاتك هذه؛ لأنهم يملكون عيوناً في كل مكان، ولا أعرفهم.

سكت مختار، ثم واصل:

ـ ربما تكون أنت واحداً منهم.

أخذ حمود يضحك من سخرية مختار الذي نهض مغادراً الغرفة.

عندما ذهب مختار لغرفته وجد صديقه ويناي غير موجود، فقام بالتوضؤ وأداء صلاة العشاء لأول مرة منذ وصوله لهذه البلاد.

نام ليلتها مبكرا كأنه لم ينم أبداً من قبل.

في اليوم التالي ذهب إليه حمود شاكراً له ماقام به، وبأنه كان يتوقع أن يبلغ عنه، لكن مختار أخبره بأنهما أبناء وطن واحد وتراب واحد، واليمني لايمكن أن يؤذي شقيقه، ولكن عليه الحذر فالدولة هنا متشددة حيال هذا الأمر، خصوصاً بعد المعارك التي تجري في أفغانستان، والدعوات من دول عديدة لإرسال المجاهدين والقتال، عليه أن يكون حذراً، والدين كما يتصور لايمنع الحذر، وأن الكثير من الطلاب يصلون.

مع مرور الوقت، أصبح يستدعي حمود كثيراً للاجتماعات أو النزهات، وهو ماجعله أكثر اندماجاً بالمجموعة وتقبلاً لكل مايدور من نقاشات وكلمات، حتى تلك التي لاتعجبه، فكان يكتفي بالصمت.

وبعد نهاية الفصل الدراسي الثاني لعامه الأول، استدعاه رئيس الجامعة وأعطاه ظرفاً كبيراً به تذاكر سفره إلى عدن وبعض النقود.

كان سعيداً جداً بهذا، لذلك فقد شكر رئيس الجامعة مستأذناً إياه بالمضي لترتيب أغراضه وشراء بعض الهدايا.

وكان الوقت ضيقاً لهذا قام بشراء بعض الملابس الخفيفة لوالدته وأخته، وكذلك شراء بعض الهدايا

التذكارية للرفيق مثنى والأستاذ قاسم، وكان يتمنى لو أن صديقه سالم في عدن حتى يشتري له بعض الهدايا.

وقبل سفره بيوم قام بعمل حفلة صغيرة لتوديع الطلاب المغادرين بشكل نهائي، والطلاب المغادرين للزيارة، ألقيت فيها الكثير من القصائد والأغاني اليمنية المختلفة، وفي المساء قرر الذهاب لمقابلة كريستيا فقد مرت أسابيع طويلة لم يرها فيها، ومع السفر كان لابد له من رؤيتها، فذهب إلى غرفتها واستدعاها لتناول العشاء معا.

كان لقاءً متردداً مثل أي حبيبين انفصلا عن بعضهما وتقابلا بالصدفة؛ لقاءً تكون فيه الأسئلة عن الحال والصحة والظروف هي المسيطرة، مع الكثير من النظرات التائهة، والأصابع الحائرة، والكلمات المتباعدة.

ـ هل صحيح بأنك تسافر إلى عدن؟

ـ نعم، منحوني تذكرة سفر، ولهذا يجب أن أسافر.

ـ كم ستمكث هناك، أعني في عدن؟

ـ حسب التذكرة هما شهران فقط، كافيان بالنسبة لي، سأرى أمي وأختي وأعود بعد عامين من الغياب.

أخذت كريستيا تنظر إلى البعيد وكأنها تتخيل شيئاً ما، أو تقوم بتجميع فكرة للحوار البارد هذا ـ بصراحة لا أتخيل أن أغيب عامين عن كييف، منذ سبع

سـنوات وأنا مقيمة فيها بشـكل دائم ماعدا بعـض الزيارات القصيرة لوالدتي والعودة.

ـ بكل تأكيد هي فترة طويلة، لكن الأعوام في وطني لاتشـكل أهمية كبيـرة، الكثير من اليمنيين يعيشـون في مدن الاغتراب ويغيبون لأعوام بعيداً عن أوطانهم وأبنائهم.

ـ هذا شيء محزن.

ـ بـكل تأكيد هو محـزن، ولكن الثقافـة العامة للبلد كرسـت هـذا الشـيء، لدينا مناطق فـي جنـوب اليمن ليس لديهـا ثقافة الاغتراب هـذا، بينما هناك مناطق يغيب أبناؤها لسـنوات طويلة قد تصل لسـبع أو عشر سـنوات، كذلك في شمال الوطن سمعت الكثير من القصص مثل هذه.

ـ اوووووه..

هذا كثير جداً.

ـ نعم.

أمسك مختار بيدها وهو ينهض، وفي حقيقة الأمر كانت يد صديقة عادية لا يد حبيبة، وهي أيضا لديها نفس الشعور.

ـ هل تريدين شيئا من عدن؟

لمعت عيناها بفرح وهي تقول:

ـ نعم، أريد هدية من تراثكم التقليدي، أي شـيء حسب

ذوقك.

ـ حاضر.

كانا يمشيان لفترة متجاورين بصمت قبل أن يسألها مختار:

ـ هل مازلت صامدة على مبادئك الوطنية والاستقلالية.

ضحكت بعمق هذه المرة

ـ هذه القناعات لاتنتهي فجأة، لابد من زلزال قوي يغيرها، وهذا الزلزال سيضرب هذه البلاد بعمق ويحيلها إلى رماد، لا جدوى من الإصلاح ولا الشعارات الجوفاء التي تسمعها من فم الأقرع غورباتشوف.

كانا قد وصلا إلى مقر سكنها فقال لها مختار:

ـ أتمنى لك الأفضل كريستيا ولوطنك سواء هذا أو الذي في أحلامك، أنت فتاة جيدة وتستحقين الأفضل.

ـ شكرا لك عزيزي، أتمنى لك حياة سعيدة ولوطنك النماء والازدهار.

ضحكت وهي تواصل حديثها قائلة بعمق:

ـ والوحدة كذلك.

ضحك مختار من تلميحها، فقام باحتضانها وتقبيلها على جبينها مودعاً إياها.

لـم تكن كريسـتيا مـن الفتيات اللاتي يمكـن للمرء أن يتركهن، لكن دروب السياسة فرقت بينهما إلى حد ما.

هو في طموحه وانشـغالاته ودراسـته، وهي في أفكارها التحررية وشبه انشغالاتها بالدراسة وتعصبها لوطنها.

لم يكن في ذهن مختار أن السياسـة يمكن أن تفرق بين حبيبين.

ماهي القوة التي تمتلكها السياسة لهذه الدرجة؟ تستطيع أن تعبـث حتى بقلوب المحبين فكيف بعقول الساسـة وتراب الأوطان.

في طريقه إلى موسكو بالقطار حتى المطار، كان يشعر وكأن الأرض كلها تودعه وتزفه كعريس، و أن قلبه يكاد يقفز من سجنه الصدري.

لم يتصور مطلقا أن عدن تملك كل هذا العشق في جنباته.

كان يرى موسكو وجمالها، وكييف وأناقتها، فيتخيل أن عدن بجانبهما فتاة مشردة أهملها والداها.

لم يعرف أن تلك الفتاة هي التي تكاد تقتله اشتياقاً ولهفة وهو يسير إلى لقائها.

لم يدرِ بنفسه إلا وهو يخرج دفتر مذكراته لكي يكتب مايشعر به.

أحس بأن الكتابة في ذلك الوقت ضرورية لكي يرتاح مما يعتمل في صدره.

حاول أن يكتب نثراً عن الحب واللقاء المزمع وعن سهره وعذابه في انتظار حبيبته عدن، وحاول أن يكتب شعراً لكن لم تطاوعه ثنائية الحرف والعقل، لذلك كان يظن أن موسكو أو كييف قد سحرتاه وهو يشاهدهما أو يعيش تفاصيلهما اليومية، لكنه اكتشف أن السحر العدني لا يزول ولا يتغير، ولا يمكن لكل طلاسم المدن بأجمعها أن تتفوق عليه.

غرق في حلم عميق وهو يكتب ويغوص في مشاعره، حينها أدرك أن الشعر لمبتدئ مثله عملية شاقة ومضنية.

انتهى من كل إجراءات السفر بسرعة كبيرة له ولكامل الطلاب الذين كانوا معه، ولرئيس اتحاد الطلاب عبدالكريم الذي سيغادر إلى عدن بصفة نهائية بعد انتهاء دراسته الجامعية.

كان ينتظر بفارغ الصبر الوصول إلى مدينته نهاراً حتى يشاهدها من الجو، يريد أن يرى عدن من الأعلى كما يشاهد أحدهم زهرة بين التراب، وبالفعل كانت عدن كما تخيلها جميلة وبسيطة.

هي بشكل عام ذات لون واحد، لون رمادي، مع لون

التراب الذي يتخلله.

مبانٍ وشوارع وجبال بلون واحد.

هاقد عادت سفن اللقاء إليكِ يا عدن، بعد عامين كاملين لم يكد يفارق فيها حنينه حتى عاد إليها.

كانت معاملات الدخول روتينية مملة وإجراءات مشددة بشكل لا يطاق.

عيون الارتياب كان يراها في وجوه كل الضباط والأمنيين في المطار؛ يبدو أن البلاد مازالت تعيش هاجس الحرب الأليمة التي فرقت بين الرفاق وقسمت البلاد لمناطق وهويات مختلفة.

بعد تفتيش ذاتي دقيق لم يجده حتى في مطارات الاتحاد السوفييتي ومحطات قطاره، خرج من المطار.

كانت عدن جميلة حتى في عز الصيف، فتاة شبقة متلهفة للقاء حبيبها، وكان هو حبيبها.

وفي التاكسي بقي الدفتر في يده يحاول أن يكتب بانتظار الفكرة.

ظل مستمتعاً وهو يكتب خواطره في عدن، وكأنه كان ينتظر العودة ليكتبها.

مروراً بأطراف المنصورة والشيخ عثمان كان يتأمل

المنـازل بلونها الداكـن الحجري والإسـمنتي، ويتأمل بعض (الحافـات) بأزقتها الضيقة وبسـاطة أهلها، حتى وصوله إلى الحي الذي يسكنه.

كان اسـتمرار دخول سـيارة الأجرة مسـتحيلاً إلى داخل الحـارة، لهذا فقـد توقف ونادى بعض الأطفـال الذين كانوا يلعبون لمساعدته في حمل أغراضه.

وصـل إلـى منزلـه أو بالأصح منـزل صديقه سـالم، وأخذ يلتقـط أنفاسـه قبـل أن يطـرق الباب اسـتعداداً للقـاء والدته وأخته.

كان اللقـاء حافـلاً كمـا توقعه، وصاخبـاً مع صرخات أخته وبكاء والدته التي رآها بخير حال.

لـم تتركه والدتـه لدقيقة واحدة وهي تسـأله عن أحواله ودراسـته، وتلمس يده التي كانت معاقة بكفيها، وهي غير مصدقة أنها قد أصبحت بهذا الشكل السليم.

ـ الحمد لله ياولدي، الطب أصبح متطورا لدرجة رهيبة.

ـ نعـم يا أمـي، هناك يعيشـون في تطور رهيـب جداً في كل المجالات.

ـ هل يستطيعون أن يجعلوني أطول؟

سألت أمينة وهي تشير بيدها لما فوق رأسها

ـ نعم يقصون قدميك ويزرعون قدمي زرافة.

تصنعت أمينة أنها غضبت منه، فضمها إليه وقبّلها على رأسها، ليسمع ضحكاتها، فقام بالضغط على رأسها قبل أن يضحك بدوره وهو يقول:

ـ مازلت كما أنت شقية.

اشتقت إليك وإلى مشاغباتك أيتها المجنونة.

استمر الحديث لوقت متأخر من الليل، وكان يتخلله بعض الطعام والشاي العدني بالحليب اللذيذ الذي اشتاق إليه كثيراً، وعند توجهه للنوم شاهد والدته تصلي في غرفتها، فتذكرها عندما كانت تصلي قبل سفره، وتذكّر زميله حمود وسؤاله له عن الصلاة.

كانت آخر مرة صلى فيها في عدن ربما في بداية الثانوية بأمر والدته، باستثناء مرة واحدة، لكنه مع انشغاله ونشاطاته مع الرفيق مثنى وتعمقه في الاشتراكية والأيدولوجيات المرتبطة بها؛ نسي الصلاة تمام، لكنه لم ينوِ أن يصلي في تلك الليلة.

في الصباح أخذ حقيبة صغيرة وتوجه لمقر اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي لمقابلة معلمه الأول وصاحب الفضل عليه الرفيق مثنى.

كان المشوار متعباً قليلاً مع قلة المواصلات وحرارة

صيف عدن اللاهب، وعلى بوابة اللجنة كان التفتيش دقيقاً وذاتياً لدرجة التعري، وفي الأخير أخبروه أن الرفيق مثنى توجه يوم أمس مع وفد رسمي لصنعاء لحضور الاحتفالات السنوية لتولي الرئيس صالح لمنصب الرئاسة في الشطر الشمالي.

لهذا فقد فضل الذهاب إلى ساحل أبين القريب من هناك والتنزه لبعض الوقت.

جلس هناك وحيداً لايفصل بينه وبينه الساحل أي شيء، ولم يجد سوى لافتة مهترئة يستظل خلفها.

كان الساحل الرملي ساحراً جداً وهو يتأمل تلاحق الموجات فوقه كمجموعة من الفرسان يسعون إلى نيل رضى الملكة، وفي مخيلته أنغام الفنان أحمد قاسم وهو يترنم بأغنيته:

- يا ساحل أبين بنى العشاق فيك معبد.

لطالما سمع الكثير من زملائه عن قصص العشق واللقاءات المسترقة على رمال هذا الساحل.

لم يسحره النهر في موسكو ولا في كييف ـ رغم الجمال والترتيب والعمل البشري الجبار لتحسينه ـ كما فعل هذا الساحل الذي ظل كما هو منذ ولادته بعد الانفجار الكوني العظيم.

ولـم يدرك كـم مكث هناك من الوقـت، إلا حينما رأى وصول أولى دفعات العشـاق والمتطفليـن وهم يعبرون أمامه، لهذا فقد أخذ حقيبته وانصرف عائداً إلى منزله.

وفي ذلك المساء، وبعد العشاء، أحضرت له والدته الشاي وقالت له:

ـ تعلم أني أصبحت مسنة.

ـ لا ،لا أعلم.

فأنت مازلت شابة.

اعتدل في جلسته وهو يواصل حديثه:

ـ اليـوم ذهبت للبحث عن عريـس لك، وأنت تقولين بأنك عجوز.

ـ اسمع ياولد، لست بحاجة لسخريتك مني.

ـ معاذ الله أن أسخر منك، ولكن رأيتك حزينة فأحببت ملاطفتك، ماذا هنالك؟

ـ لا شيء، ولكني فقط أريدك أن تتزوج.

ـ أنا؟!

فـي هـذه اللحظـة تدخلـت أختـه أمينة فـي الحـوار قائلة بسخرية:

ـ لا أحـد فـي سـن الـزواج، أو يصلـح له في هـذا المنزل

سواك.

ـ أووووه، يبدو أن الأمر مخطط له بينكما.

قالت أمه مدافعة عن نفسها:

ـ هذه المرة الأولى التي أتحدث فيها عن الموضوع، كل مافي الأمر أني أريد أن أفرح بك، وأرى أولادك، وأن تساعدني زوجتك في أعمال البيت، بدلاً من هذه الكسولة التي لاهم لها سوى اللعب وسماع الأغاني من المسجلة التي أرسلتها لها من موسكو لتفسدها بدلالك وحبك لها.

غضبت أمينة وأرسلت نظرة لأخيها بمعنى هل يرضيك هذا ثم قالت:

ـ هل تعلم بأني قمت بتنظيف كامل البيت، وطبخ الغداء ثم العشاء، وهي لم تساعدني سوى بتقطيع الخضروات وإعداد الشاي قبل قليل.

ضم مختار أخته أمينة قائلاً:

ـ أنا أعلم هذا، وأخبرتني كثيراً عنك ولكنها تمازحك، وأنا أعلم بأنك ابنة صفية ونتاج تربيتها، ولابد أن تكوني ست بيت ممتازة.

ثم التفت إلى أمه قائلا بشكل بات:

ـ أنا مازلت طالباً في السنة الثانية من الكلية يا أمي،

والـزواج يحتاج لمسـؤوليات وتجهيـزات، وأيضـا البحث عن عروس وأشياء كثيرة جداً.

ـ العروس موجودة.

ـ أها، من هي؟

قالها مختار وكأنه أوقع أمه في شـكوكه، فتداركت هي الأمر قائلة:

ـ لا توجد واحدة فقط، ولكن هناك فتيات كثيرات في الحي من أسـر كبيرة ومحترمـة من خارج عدن ومن داخلها، وجميعهن سمعن بك وبما تقوم به وماوصلت إليه، وأيضا لدينا البيت جاهز.

ـ أولاً يا والدتي الحبيبة..

هذا البيت ليس لنا، بل هو لصديقي سالم.

نحن مجرد حراس له، وحالما يأتي سنتركه ونعود لبيتنا البسيط.

ثانياً:

الأسـر الكبيـرة التـي تتحدثيـن عنهـا لـن تعطـي بناتها لشخص ينتمي لأسرة مهمشة.

ـ أنت أفضل منهم ومن أبنائهم.

ـ ربما، ولكنا مازلنا نعاني من ترسبات الماضي البغيض

والرجعيـة المتخلفـة في هذا الجانب، المرء يقاس بأشـياء لا علاقة له بها:

بأسـرته و بقبيلته وأبناء عمومته، وليـس بعلمه أو بثقافته ومدى اندماجه بالمجتمع والدولة.

شاهد ملامح الخيبة والانكسار في عيني أمه وأخته على حد سواء، فواصل حديثه قائلاً:

ـ أعدكما بأني عندما أكون جاهزاً وفي الوقت المناسب سـوف اطلب منكمـا البحث عن العروس المناسـبة، لكني في الوقت الحالي لا أرى نفسي مستعداً للزواج في اليمن.

ـ ماذا عن روسيا؟

سألته أمينة بخبث، فأجابها وهو يصفعها بدلال:

ـ ولا روسـيا، ولا فـي أي مـكان علـى كوكب الأرض أيتها اللئيمة.

حينها فقط، شاهد والدته تضحك وهي تشاهدهما، وفي عينيها اختفى حزن عميق مؤقتاً.

بمجـرد عـودة الرفيـق مثنـى من الشـطر الشـمالي؛ ذهب لزيارتـه حامـلاً مـع هداياه وأشـواقه، وكان اللقـاء جميلاً فـي مبنى اللجنـة المركزيـة للحـزب، رغم مشـاغل الرفيق ومسؤولياته، لكنه أصر عليه بأن يتناول معه القات في منزل

أحد الرفاق عصر ذلك اليوم، وقد فوجئ يومها بحضور رئيس الحزب نفسه، ورئيس الحكومة.

كانت مفاجأة غريبة له وصادمة، وكانت صدمته أكثر حين عرف بأنه الطالب الوحيد أو غير الموظف، من الحاضرين.

زادت دهشته حين قدمه الرفيق مثنى للحاضرين وأخذوا يسألونه عن دراسته وتخصصه، وزادت دهشته أكثر، حينما سأله الرئيس عن عشيقاته الروسيات وسط ضحكات الحاضرين.

وكانت صدمته شديدة التأثير عليه لهذا فقد بكى كثيراً ليلتها وهو يحس بروعة القيادة وتواضعها، ومدى قربها من الشعب، وأن هذا الوطن يستحق الأفضل بكل تأكيد.

انتهت زيارته للعاصمة عدن سريعاً بين بيته ولقاءاته مع الرفيق مثنى الذي كان صندوقاً للمفاجآت والزيارات غير المتوقعة التي لا يخبر عنها أحداً، وكذلك زياراته القصيرة للأستاذ قاسم الذي أصبح وزيراً في الحكومة الجديدة.

وبمجرد عودته إلى كييف أقر اتحاد الطلاب اليمنيين باجتماعه الأولي تعيينه نائباً لرئيس الاتحاد، وهو منصب شرفي تطوعي على كل حال، وكان الجميع يعلم بأن

منصب الرئيس ليس إلا مسألة وقت له.

في أحد الأيام، فوجئ برئيس الجامعة يستدعيه مع رئيس اتحاد الطلاب، ليخبرهم عن اختفاء الطالب حمود، حيث أنه متغيب منذ أسبوع عن فصله الجامعي، ولا يفتح الباب لأحد، وعند دخول الغرفة وجدوا أوراقاً مكتوبة بخط يده يتحدث فيها عن الجهاد والإسلام وإعلاء كلمة الله، وأوراقاً أخرى فيها آيات قرآنية بخط يده.

حاول مختار أن يتكلم وسط دهشته، لكنه فضل الصمت في آخر لحظة، فالصمت في بعض المواقف حكمة بليغة.

لاحظ رئيس الجامعة تردده ومحاولته للكلام، لهذا فقد أمر الجميع بالانصراف وإبقاء مختار لوحده، وقد أدرك هو بذكائه أن أي محاولة للإنكار لن تفيد أحداً، لهذا قرر أن يتحدث بأي قصة فهي على الأقل أفضل من الإنكار.

قاطعه صوت رئيس الجامعة وهو يسأل:

ـ كيف حالك اليوم يا مختار.

ـ أنا بخير سيادة الرئيس.

حاول بكل إمكانياته التعبيرية أن تبدو لكنته قوية وواضحة ومرحة قبل أن يبادر هو بالحديث منعاً للشكوك.

ـ كنت أريد أن أخبرك بموضوع حول الزميل حمود،

لكني خشيت من أن يعرف أني أخبرتكم إذا عاد ، أو يعرف الطلاب أني أنقل لكم أخبارهم.

بدا الاهتمام على وجه رئيس الجامعة وهو يميل بجسده النحيل على سطح المكتب باتجاه مختار ، وهو يحثه بتعابير وجهه السلافية الباردة على الاستمرار ومواصلة الحديث.

ـ في آخر يوم قبل سفري إلى عدن ، بعدما عدت من توصيل صديقتي لغرفتها ، وعندما كنت أصعد الدرج إلى غرفتي ، التقيت بالزميل حمود ، وأخذ يهاجمني ويشتمني وكان في حالة سكر ورائحة الخمر تفوح من فمه ، ولم أفهم منه شيئاً ، إلا أنه كان يحب صديقتي من طرف واحد ، وكان يتهمني بأني أخذتها منه.

واصل رئيس الجامعة اهتمامه وهو يحث مختار على الاستمرار ، وهو بدوره واصل حديثه بثقة بالغة :

ـ في اليوم التالي ، وقبل ذهابي إلى موسكو ، جاء إلى غرفتي واحتضنني وأخذ يعتذر لي عما بدر منه في الليلة السابقة ، وكان يبكي بشدة وتأثر بسبب مافعله معي.

ـ أها..

هذا موضوع شخصي لا علاقة لنا به مطلقاً ، لكن ما رأيك بكلامه الذي وجدناه في الورقة؟

ـ بصراحة ، لا أدري ماذا يقصد؟ لأول مرة أسمع هذا

الكلام، ربما بسبب تأثير الخمر أيضاً.

ـ حسناً، انصرف الآن.

وعندما توجه مختار للباب، سمع صوت رئيس الجامعة وهو يخاطبه:

ـ إذا سمعت أي معلومة أو خبر..

أعلمني بها فوراً.

استدار مختار وهو يوميء برأسه دلالة على الامتثال لذلك من باب الاحترام، ثم انصرف من الحجرة وهو يتنفس بعمق، وقد عزم على ضرور السيطرة على انفعالاته وتعابير وجهه، وأن هذا هو التحدي القادم له.

أما حمود فقد اختفى بشكل تام، ولم يتم العثور على أي أثر له، وقام البوليس بالتحقيق مع الجميع، وتفتيش غرفته وغرف الطلاب جميعهم لعدة أسابيع دون أن يجدوا دليلاً مادياً أو معنوياً على سبب اختفائه، ليصبح هذا من أصعب الألغاز وأكثرها تعقيداً لدى الجميع ماعدا مختار الذي كان الوحيد من يملك جزءً صغيراً من حقيقة اختفائه المحيرة.

لاحظ مختار بعد الحادثة الأخيرة أن هناك تغيراً كبيراً في سلوك بعض الطلاب تجاهه، بينما بعض الطلاب أصبح يتملق له بأسلوب فج، ولم يفهم أبداً سر هذا التغير، لكنه ربطه بموضوع اختفاء زميلهم حمود بما أن التغير قد جاء بعد

قصة اختفائه، لكنه لم يفهم علاقته بالموضوع.

استمر الوضع لشهر كامل وسط برود كبير من مجمل الطلاب، واجتماعات غير معلنة بدونه في مطعم الجامعة، وهمسات مكتومة كلما كان موجوداً في مكان ما كان يلاحظها بصمت واستغراب شديد، تحول مع الوقت إلى ألم داخلي لم يكن يظهره.

ولم يستطع مختار أن يتحدث عن السبب؛ لأنه إن تحدث سيؤكد شكوكهم، وكان يتمنى لو أنه شفعت له عندهم نشاطاته ومساعداته السابقة لهم، لهذا فضل أن يتعامل بصمت وصبر مع الموضوع حتى تنفرج الأمور.

بعد مرور أكثر من شهر، كان يجلس في فناء الجامعة في عصاري أحد الأيام الصيفية، عندما انتبه من أفكاره على صوت نسائي يناديه، رفع رأسه فوجد زميلته اليمنية عبير تناديه وهي واقفة، نهض إليها كي يحييها، لكنه فاجأته بلهجة جافة وهي تسأله:

ـ هل لك علاقة باختفاء زميلنا حمود.

ـ أنا؟ بالتأكيد لا.

أجابها بصوت مذهول قبل أن يستطرد بسرعة:

ـ لماذا تسألينني هذا السؤال، ولماذا أنا؟!

ـ لأن رئيس الجامعة استبقاك لوحدك عندما استدعاكم للسؤال عنه.

ـ لم أفهم العلاقة؟ هل يمكنك التوضيح؟

ـ الطلاب يشكون بأنك أنت من أبلغت عنه، ولهذا أراد رئيس الجامعة أن يتحدث معك منفرداً.

كان الذهول باد على ملامح مختار وهو يستمع إليها، أما هي فقد لاحظت هذا قبل أن تسأله مجدداً:

ـ هل أنت من أبلغ عنه؟

ـ بالتأكيد لا، لا هو ولا جميع الطلاب.

لست أنا هذا الشخص، ولو كنت أقوم بهذا لقبضوا عليه منذ العام الماضي.

ـ لماذا؟

حاول مختار أن يصمت ويتجاهل الأمر حتى لو كانت النتيجة أن يعيش معزولاً، كما أن انتشار الحديث يعني وصوله من أي شخص إلى الجامعة عبر طلاب آخرين، وهو مايعني نهايته.

لكنه فكر بأن عبير ستكون بوابته لعودة الأمور لمجراها الطبيعي، لذا فقد تلفت حوله قبل أن يمسكها من يدها وهو يسير مبتعداً.

ـ اسـمعي، عديني ألا تخبري أحداً بما سـأقوله لك مهما كان السبب.

ـ لكن الطلاب يريدون معرفـ....

ـ عبير..

عديني بهذا أو لن أتحدث مطلقاً.

انتبهـت إلى أنه مازال ممسـكاً ذراعهـا، فأبعدتها بلطف قبل أن تومئ برأسها بالإيجاب.

قام بإخبارها بما جرى بينه وبين حمود، وبما دار بينه وبين رئيـس الجامعـة الذي أخبـره بقصة وهمية حتـى لا يتورط هو بالأمـر، فلم يكن أمامه إلا هـذه الخطوة بعدما لاحظ رئيس الجامعة تردده.

ـ أين ذهب حمود إذن؟

ـ بصراحـة، لا أدري، لكـن إن صحـت توقعاتـي فهو لن يعود، وسوف تعرفون بأنفسكم هذه الحقيقة.

ـ هنـاك بعض الطلاب مـن نفس منطقته، ومع نهاية العام سيعود بعضهم لليمن لزيارة أهاليهم ومعرفة القصة المفقودة.

ـ نعم، هذا أفضل حل.

حتما ستجدون الحقيقة هناك.

بدا على عبير أنها اقتنعت بروايته، فسألها:

ـ هل أصبحت بريئاً الآن؟

ـ إلى حد ما.

ـ ماذا بعد؟

ـ لا أدري، لكن يحتاج الأمر لبعض الوقت، كما أن الطلاب ينتظرون مني إخبارهم بما دار بيننا، ومع إلتزامي بالوعد الذي قطعته على نفسي سيصبح الأمر أكثر تعقيداً، لكني سأتدبر الأمر معك أنت وليس معهم.

سنذهب سوياً وهم سيرون هذا وسأتكفل بالباقي.

ومع مرور الوقت، تحسنت علاقته مع الطلاب، وبدأت الأمور تعود لمجراها الطبيعي، خاصة مع حديثه المستمر مع عبير التي كان يشعر بأنه مدين لها بما قامت به للبحث عن الحقيقة، رغم مخاطر هذه الخطوة عليها.

ومع انتهاء العطلة الصيفية وعودة الطلاب الذين ذهبوا لزيارة أهاليهم، كان الجميع ينتظر الحقيقة وأولهم مختار الذي فوجئ بطرقات خفيفة على باب غرفته، وأحدهم يناديه بأن عبير تنتظره في فناء الجامعة، وعندما ذهب إليها وجدها تجري باتجاهه وهي تسأله:

ـ هل كنت تعرف أين ذهب حمود؟

فوجئ بسؤالها لكنه أجابها قائلاً:

ـ إلى حد ما، لكني لست متأكداً من ذلك.

ـ هل كنت تعرف بأنه ذهب إلى أفغانستان.

ـ أفغانستان؟!

كانت الدهشة واضحة جداً على ملامحه وهو يصرخ، قبل أن ينتبه بأن صوته كان عالياً

ـ لماذا أنت مندهش؟ أين كنت تتوقع ذهابه؟

ـ توقعت أنه سيذهب إلى فلسطين؛ لأنها القضية الأهم، أما أفغانستان، فلم أتوقع هذا؛ لأن هذا مستحيل أمام طالب يدرس في روسيا.

ـ يبدو أنهم قرروا تحرير القدس عبر سهول أفغانستان.

ـ بل قولي أضاعوا البوصلة وتاهوا عن الطريق؛ بمعارك بعيدة عن الهدف، لإيهام أنفسهم أنهم يصلون، واستمرارا لحالة الوهم الجماهيري واستعباد العقول.

ـ المهم حالياً أن ما أخبرتني به كان حقيقياً، والطلاب كلهم عرفوا الحقيقة.

ـ شكرا لك أختي العزيزة، هذا جميل وطوق في عنقي.

ـ العفو..

لم أفعل أي شيء يستحق الذكر.

تطورت علاقته مع عبير إلى صداقة حقيقية من جانبها

علـى الأقل، أما هـو فكانت رؤية عينيها الواسـعتين تكفي لإغراقه في دوامات لا تنتهي من المتعة والشوق.

عينان يسـتحيل أن يراهما على وجه فتاة شـقراء، وكأن اللّه أودعها إياهمـا للتذكير بوجوده دائماً، حيث أنه بمجرد أن يراهما يصيح:

"اللّه».

كانت هي بالنسبة له تذكيراً بالوطن والعودة للأصول.

عبيـر بكلهـا تجعله يدرك أن الوطن جميـل مهما انغمس في الغربة، وفي العشـق والملذات، فهـو متيقن بأنها مؤقتة، وعبير هي الدائمة بشـخصيتها، أو برمزيتها التي تكونت مع تراكم النظرات في عقله.

عبير هي المرحلة الوسـطى بين سـناء بفطرتها البسيطة، وبين كريستيا بمدنيتها المنفتحة.

أصبح يشـعر بأن حياته سـتكون مع عبير، بل هي الحب الحقيقـي فـي حياته الذي وجـده بعد إعجابه بسـناء وانبهاره بكريستيا.

هي الحب الذي يرتبط بالوجدان والعقل والعاطفة كذلك.

مايو 1990

مـع بدايـة العـام الجديـد ، كانت الـروح المعنويـة هناك لـدى الجميع مرتفعة ، والأخبـار ترد من الوطن عن اجتماعات سياسـية على مسـتوى القـادة ، وتفاهمـات كبيرة بـدون أي وسـاطات أو تدخل دولـي كما هي العادة فـي كل اتفاقيات الشطرين ، أيضا كانت الأوامر بمزيد من التآلف والنشاطات الطلابية ، وهو ماكان موجوداً سـابقاً ، على اعتبار أن اتحاد الطـلاب كان متوحـداً فـي الشـطرين مـع بعـض الاتحادات الأخرى.

مـع انتخابـات الاتحـاد كان مختـار هـو المرشـح الأقوى والوحيـد لتولـي المنصب الشـرفي ، لهـذا فقد أصبح رئيسـاً لاتحـاد الطـلاب في الجامعة ، وأيضا مسـؤولا عـن العلاقات الخارجيـة ، بالإضافـة لتفوقـه الدراسـي في سـنته الجامعية الثالثة.

كان واضحاً أنه يسـير بخطى حثيثة نحو رسـم مسـتقبله السياسي والقيادي بهدوء وصبر ، وهو يدرك أن الطريق طويل وصعـب جـداً ، ويختلف كلياً عن الوسـط الطلابي البسـيط والحالم.

مع قرب نهاية العام الدراسي في الجامعة، كان الجميع على موعد وطني مختلف وجديد، إذ فوجئوا في صباح يوم الثلاثاء الموافق يوم 22 من شهر مايو، بخبر رئيسي في نشرات الأخبار عبر المذياع عن إعلان الوحدة اليمنية في صنعاء، وأصبح اليمن واحداً بشكل سياسي بعد أن كان واحداً بشكل جغرافي وشعبي.

كان مختار من أشد الطلاب تأثراً بالخبر، وهو الأيدلوجي المتأثر بفكر الحزب الاشتراكي الذي كان طوال سنوات حكمه في الجنوب يرفع شعار «من أجل تحقيق الوحدة اليمنية» في كل نشاطاته وفعالياته وأدبياته، وفي كل صحفه ومنشوراته.

يومها خرج الطلاب عن بكرة أبيهم. ودون تنسيق مسبق أو أخذ الإذن من الإدارة. إلى ساحة السكن الجامعي يرقصون ويغنون بتلقائية شديدة، وهم يرددون الأغاني اليمنية والأهازيج، ولم يتوقفوا حتى جاء مدير السكن يطلب منهم التوقف والعودة لغرفهم.

وقد أقر الطلاب جميعهم عمل احتفال ضخم في نفس اليوم إحياءً لهذه المناسبة الغالية، ولقد استمرت في قاعة الاحتفالات حتى الصباح.

كان يوماً عظيماً لا يتكرر في التاريخ إلا كل ألف عام،

وهل يوجد يمني لم يحلم بهذا اليوم، أو يطالب به ويسعى له، لأرض واحدة قسمتها ظروف الاحتلال المتنوع، وانتشار الجهل والتخلف.

طوال ألف عام غابت اليمن عن العالم ومواكبة الحياة، رغم أن اليمنيين انتشروا في كل الأرض ينشرون العلم، ويحاربون في جيوش الفتح، ويؤسسون للتجارة في كل البلدان التي ذهبوا إليها واستقروا بها.

ستكون الوحدة هي بوابة عبور اليمنيين للمستقبل وبناء يمن قوي علمي تقدمي، وقد أجمع الطلاب جميعهم في كلماتهم وقصائدهم عن أهمية الوحدة واستبشارهم بالمستقبل والأيام القادمة، وهو ما انعكس على حالتهم ومزاجيتهم فيما تبقى من ذلك العام الدراسي، فانتشرت روح الأخوة والتكاتف والمرح بين الجميع بشكل كبير جداً.

وكان مختار يتمنى لو استطاع زيارة اليمن في هذه العطلة، وأن يسافر إلى صنعاء عاصمة اليمن التاريخية والسياسية، كي يشاهد التاريخ مجسداً وجميلاً في حاراتها وأزقتها، لهذا فقد قام بكتابة الرسائل بهذه المناسبة لوالدته وأخته وللرفيق مثنى، ضمّنها ترجمات لما نشرته الصحف الروسية عن هذه المناسبة، مع الكثير من العبارات الوطنية والحماسية من قبله، وكتب أيضا خطابات معايدة للأستاذ

قاسم وبعض المسؤولين الذين تعرف عليهم في آخر زيارة.

وفي زحمة الأفراح والحماسة تذكر صديقته كريستيا، فمنذ فترة طويلة لم يرها، لهذا أحب أن يراها، خاصة أنه تذكر كلامها عن الوحدة وعن السياسة في أوقاتها السوداوية التي مرت بها.

لهذا فقد ذهب إليها، وعندما رآها أخذها بالأحضان، وهي بدورها قامت بتهنئته بالوحدة وبمزيد من التقدم والرخاء للشعب اليمني.

كان اللقاء بينهما متذبذباً في المنطقة الرمادية بين الحب وبين الفراق.

هو لم يعد يعرف إن كانت ماتزال تحبه أو لا، أما هو فلم يستطع أن يفارق بئر حبها، رغم أفكارها السياسية التي تشغل بالها، وقد دعاها لتناول طعام العشاء خارج الجامعة، فلبت الدعوة على الفور، وفي المساء التقيا وذهبا معاً كالأيام الخوالي، لكن مبتعدين عن بعضهما.

ـ كنت متأكدا من أننا سنحقق الوحدة يوماً ما.

قال لها مختار هذا وهما على طعام العشاء في المطعم المتواضع قبل أن يكمل حديثه:

ـ كان رهاني على شعبنا العريق في هذا الشأن.

نظرت إليه معجبة وهو يتحدث بنشوة وحماس وهي تقول له:

ـ نعم، كنت طوال أحاديثنا واثقاً من هذا الشيء، وهو شيء جميل أن تثق بشعبك، وأتمنى أن تكون وحدتكم مختلفة عن وحدتنا وأفضل حالاً.

ـ وحدتنا ستكون أفضل بكل تأكيد، مع الإشارة أن وحدتكم قوية، وغيرت العالم نحو الأفضل منذ عقود.

ـ بالنسبة لي لم أشاهد الأفضل، ربما تكون وحدتكم بين شعب واحد قسمته الظروف والعوامل الخارجية، لكن وحدتنا هي بين شعوب مختلفة لا أساس يجمع بينها إلا الرغبة الاستعمارية، هذه الوحدة لن تطول بهذا الصورة.

أبدى مختار اندهاشه من حديثها المشوب بالعنصرية قبل أن يتحدث بحماس:

ـ كيف تقولين بين شعوب مختلفة بينما الأصل واحد، فحسبما أعرف، أن الروس كمسمى بدأ من هنا، حينما أسس أحد الشعوب السلافية «روس كييف»أو «كييفسكايا روس» قبل ألف عام على يد الأمير الإسكندنافي « إيغور» نجل الأمير «ريوريك روستيسلافيك» في المدينة الأولى "نوفغورود» وتوحيد السلاف الشرقيين هنا في "كييف ".

لن أنكر التاريخ يا عزيزي، فهو موجود في الكتب،

وأستطيع أن أسرد لك حفظاً عشرات الصفحات من تاريخنا منذ أن كان أجدادنا يتصارعون في إسكندنافيا، لكن أيضاً التاريخ هو نفسه يفصل بيننا وبين «فنلندا» حيث القبائل الفينية الأوغرية التي جاء منها أجدادنا السلاف قبل ألف ومائتي عام تقريباً، وهو تاريخ ليس بالبعيد.

- لكن هذه الأحداث التاريخية ستكون فرصة لكم للتوحد، بما أن الأصول واحدة والجغرافيا تجمعكم.

- يا عزيزي التاريخ موجود، ولكن الأحداث تفعل فعلها.

هل تعلم أن كييف تم تدميرها عدة مرات خلال تاريخها.

المرة الأولى على يد السلاف من الشمال وتوحيد الروس، ثم على يد المغول بعد أن كانت من أكبر مدن العالم القديم وتفرق الروس لدويلات، ثم في الحرب العالمية الثانية على يد الألمان.

هذا التدمير للمدينة كل بضعة قرون غيّرها، ولم تعد تربطها بالتاريخ إلا مجرد أنه تاريخ، بينما حاضرها سيء ومدمر أو مهمش.

حاول مختار أن يخفف من حدة الحوار التاريخي والمخلوط بالسياسية قائلاً:

- أعلم هذا، وأتمنى أن نحتفل باليوبيل الذهبي معاً، ووحدتكم قد تجاوزت المئة عام ونحن نحتفل باليوبيل

الفضي بوحدتنا.

كانا قد انتهيا من طعام العشاء، لذا فقد خرجا في جولة عند النهر، وهناك فوجيء بها وهي تمسك ذراعه كما كانت تفعل سابقاً فتركها، خصوصاً وأنه لاحظ تأملها وانشغالها بأفكارها التي قطعتها فجأة، ثم استدارت إليه بعد أن توقفت وهي تسأله:

ـ مختار، هل مازلت تحبني؟

بوغت بالسؤال وهو يحاول أن يجد الإجابة، لكنها سألته مجدداً:

ـ هل لديك حبيبة؟

مازال في دوامة المباغتة، لكنه هز رأسه بالرفض:

ـ إذن، مازلت تحبني.

ـ لا يمكن لأي شخص أن يكرهك.

ـ لماذا افترقنا إذن؟

ـ ربما ابتعدنا عن بعضنا نعم، لكنني أرى بأننا لم نفترق.

مازلنا نحتفظ بالود والحميمية، لا أستطيع أن أفسر علاقتي معك أكثر من أني محظوظ أنني تعرفت عليك هنا.

ـ حقا؟

ـ أجل، تخيلي أني في عامي الرابع هنا، وليس لي صديق

روسي أو أوكراني، الرجال هنا غليظو المشاعر وقبيحو الملامح، لا أدري لماذا الفتيات هناك جميلات بينما الرجال لا..

قال الجملة الأخيرة بنبرة ساخرة وهو يبتسم، ضحكت معها كريستيا كثيراً، ثم أكملا جولتهما معاً.

مر العام سريعاً بشكل كبير، حتى فوجئ في أحد الأيام بخبر إلقاء القبض على كريستيا بسبب نشاطاتها السياسية المناهضة لسلطة الاتحاد.

كان خبراً حزيناً جعله يبقى في غرفته لعدة أيام، وهو عاجز عن تقديم العون والمساعدة لها، وليس له أي قدرة على السؤال عنها، فتذكر والدتها في قريتها الصغيرة، لهذا فقد عزم على الذهاب إليها في نهاية الأسبوع لتقديم العون والمساعدة، وفعلا ذهب إلى هناك دون أن يخبر أحداً في الجامعة، وبمجرد وصوله إلى القرية النائية كان يتمنى أن يتذكر طريق المنزل، وأن تكون والدتها فيه، وهو ماكان، إذ رحبت به الأم يولينا وهي تبكي، لكنه قام بتهدئتها، وأعلمها أنه جاء لمساعدتها وتقديم المواساة وليس تذكيرها بابنتها.

شكرته كثيراً على مساعدته رغم المخاطرة الأمنية،

وكونه ليس من أهل البلد ، وأنها ممتنة كثيراً له.

نام هناك ليلتها حتى الصباح، وبعد أن تناول الغداء استأذنها بالعودة حتى يصل بالليل دون أن يشعر به أحد ، وبأنها تستطيع الاتصال به على رقم الجامعة في أي وقت إذا احتاجت لشيء، دون أن تفصح له عن أي شيء يخص ابنتها.

بعد مرور ثلاثة أشهر خرجت كريستيا من السجن مع بقائها ثلاثة أشهر أخرى تحت المراقبة في منزلها بالقرية ، وبعد مرور المدة عادت إلى الجامعة ، وذهبت مباشرة إلى غرفة مختار كي تشكره على موقفه مع والدتها التي كانت سعيدة به وبمجيئه، وبأنها ممتنة له على ما قام به.

ـ لم أقم بشيء يستحق الإشادة.

كان كل ما أستطيع فعله هو زيارة والدتك.

. بل فعلت مالم يستطع حتى أخي فعله، كيف واتتك الجرأة على زيارة والدتي؟ هل تنكرت حين ذهبت إليها؟ . كيف أتنكر بالله عليك؟ شاب أسمر وسط هذه البلاد..

أشبه بحبة قرنفل وسط الثلوج.

قالها بسخرية وهما يضحكان قبل أن يسألها :

. كيف خرجت؟

ـ لا شيء.

كان الجميع متعاطفا معي.

لم تعد النبرة السوفييتية مسيطرة على الجميع.

كانت تقولها بشيء من الانتعاش والنشوة، فسألها بدوره:

ـ هل يعقل هذا؟

ـ نعم يا عزيزي، يبدو أن اليوم المنشود قريب جداً.

الحلم أوشك على التحقق.

في السجن كان الجميع أوكراني الهوية، الانتماء لروسيا أو التبعية لها لم يعد مؤثراً.

مسؤول السجن أخبرني شخصياً بأنه لن يعذبني، ولن يفعل أي شيء ضدي.

لو كنت دخلت السجن قبل عام كان سيسلخ جلدي مباشرة دون أي تهمة حتى.

ـ الأوضاع تبدو هادئة في هذا الصيف.

ـ صدقني يا مختار، الوضع يتدهور ككرة الثلج، تكبر كلما زاد تدحرجها لدرجة أنها لم تبق أي ثلج على المنحدر.

ـ أتمنى لكم الاستقرار والنماء.

في العام الماضي فرحنا بتحقيق الوحدة اليمنية، لكننا حزنا على ما جرى في منطقتنا بعد غزو «العراق» «للكويت»،

ومجـيء رأس الإمبريالية «أمريكا» للمنطقـة العربية بدعوى تحرير الكويت فأصبح الدمار يعم بلدين.

ـ صدقني يا مختار، نحن سـنقف مع الشـيطان من أجل مساعدتنا، ولن نفكر بأي شيء عدا ذلك، وهو رأي الجميع.

السـجن كان دورة تقوية بالنسـبة لي بعدما اكتشفت أن الشعب الأوكراني بأكمله يرغب بالتحرر.

انتهى العام الدراسـي وبقي مختـار في كييف، إذ قرر أن ينهي العام الدراسي القادم قبل أن يذهب لزيارة أمه وأخته، ثم يعود لمواصلة الماجسـتير والدكتوراه، وقد أقنع والدته بأن هـذا القرار هو الأفضل حتى يتفرغ للدراسـة، على الرغم من رغبته الشـديدة بزيارة وطنه الجديد الذي تشكل وهو غائب عنه، إذ غادره وهو بمسمى وكيان سياسي، وأصبح بمسمى وكيان مختلف.

ومـع قرب نهاية العطلة، فوجئوا وهم يسـتعدون لبدء العام الدراسـي في نهاية شـهر أغسـطس، بضجة غريبـة وأصوات صراخ وإطلاق للألعاب النارية.

خـرج جميـع الطـلاب يشـاهدون مايجري، وبـدأ البعض يهمـس للآخرين بأنهم أعلنوا اسـتقلال أوكرانيا عن الاتحاد السوفييت.

حـدث الأمر بصـورة مفاجئة رغـم كل المؤشـرات، وتم

تصويت البرلمان الأوكراني على أولوية القانون والهوية الأوكرانيين على نظيريهما السوفيتيين.

كان هو مصدوماً مما حدث، هل يعقل مايجري؟ تذكر وقتها مقولة الرفيق مثنى عن زمن التحولات واكتساب الخبرات، فمنذ العام الماضي والتحولات تدور في العالم بين الجيد والسيء والأسوأ.

كل مايجري في العالم يجري بلا مقدمات.

لم تعد هناك مقدمات تشي بأي أحداث، تتأسس دول وتنهار أخرى فجأة خلال يوم واحد، وكأن مايجري هو لعبة تنتهي برمية واحدة.

في زخمة الفوضى والصراخ كان يبحث عن كريستيا، وكان يعلم بأنها ستبحث عنه، لهذا فقد ظل قريباً من مدخل المبنى السكني كي يراها إن أتت، وفعلاً شاهدها وهي تجري باتجاه باب المبنى.

قام بمناداتها فأتت تجري نحوه وتحتضنه بحرارة، وهي تصرخ وتضحك بكلمات كثيرة لم يفهمها، ربما تكون باللغة الأوكرانية.

كانت سعيدة بشكل لم يرها عليه من قبل، وكأنها طفلة صغيرة.

ـ أخبرتك؟ بأننا سوف نصبح أحراراً.

ـ فـي الحقيقة نعم، لكـن لم أتوقع هذا بهذه الكيفية، رغم أني مازلت أفضّل الاتحاد.

ـ أتفهـم وجهـة نظرك، ولكننا أمة مسـتقلة مجدداً منذ وقت طويل.

ـ مازلت مسـتغرباً لهذا، خصوصـاً وأن كييف هي التي حملت الهوية الروسية وأسستها، كيف يصل بكم الحال لأن تكرهوا هذه الهوية التي أسستموها.

ـ أمـور كثيـرة مرتبطـة بهـذا الموضوع يا عزيـزي، لقد ضحى الأوكرانيون بعشرات الملايين في سبيل هذا الاتحاد، وفي خوض الحروب العبثية للدفاع عن هوية لم نسـتفد منها، حربـان عالميتـان وحروب تأسـيس فـي عهد لينيـن، وحروب التبعية في عهد سـتالين، والمجاعة المدمرة التي قتلت عشرة ملاييـن أوكراني، ثم حادثة تشـيرنوبل التـي قالوا إنها قتلت بضعـة أفـراد، بينما الحقيقـة أكبر بكثير، ومـازال الناس يموتون بسبب السرطان حتى اليوم من آثار الانفجار.

ـ لكن الهوية والتاريخ..

قاطعته بحزم قائلة:

ـ منـذ انهيـار مملكـة "روس كييـف" فقدنا كل شـيء لصالـح الـروس والمغـول والتـرك والبولنديين واللتوانييـن والنمسا، وخسرنا أنفسنا لقرون طويلة.

الهوية التي تقتلك وتدمرك، والتاريخ الذي يجعلك ضعيفاً ورخواً لا جدوى منه.

ما هي أهمية الهوية والتاريخ وأنا أموت من الجوع؟ لماذا أتمسك بالوحدة مع الروس ونحن معاً نهوي إلى الجحيم؟

هز مختار رأسه مبدياً بعض التفهم لكلامها، لكن عقليته ووجدانه كانا ليمني قادم من بلد وحزب كرس كل أبجدياته وتاريخه للترويج للوحدة في وطنه فقال لها:

ـ لماذا لا يكون التاريخ والهوية جسراً للحاضر للبناء والتوحد؟!

ـ نعم، أتفق معك في سؤالك هذا، لكن مع احترام الخصوصية والتاريخ، نحن خلال فترة الانحطاط انقسمنا لعدة دول، وتقاسمتنا دول كثيرة، أصبحنا نملك تاريخاً مختلفاً عن روسيا التي كانت بحكم موقعها الجغرافي بعيدة عن التقسيم والتجزؤ، لكنهم للأسف، لم يراعوا هذا فأصبح مسمى الاتحاد السوفييتي مرتبطاً بشكل كامل بمسمى روسيا، بينما الحقيقة هي أن روسيا جزء واحد في منظومة الاتحاد وليس كل الاتحاد، أصبحوا هم كل شيء ونحن مجرد تابعين وغير أصليين، مجرد إكمال للجغرافيا.

ـ لا أدري ماذا أقول لكِ، لكنني مازلت أفضّل فكرة الاتحاد والهوية والتاريخ، على فكرة الحاضر والسياسة

والطعام فكل مايجري هو مرتبط بالسياسة.

ثم التفت إليها متسائلا:

ـ ماذا عن موسكو والاتحاد السوفييتي؟

ـ لايعنياني في أي شيء، لكني أتوقع حرباً من قبلهم كما عودونا دوماً، رغم أن أوضاع الدولة الاقتصادية صعبة جدا.

ـ ربما ليس لديهم شيء يخسرونه، فالحرب تكون أسهل خيار أمام المنهار.

اكتفيا بهذا الحد في نقاشهم الطويل قبل أن تدعوه لمشاركتها الرقص والاحتفال وسط الطلاب، لكنه اعتذر لها بدعوى أنه أجنبي ذو وضع حساس، بينما الحقيقة أنه لم يكن سعيداً على المستوى الشخصي، خصوصاً وأنه كان قبل عام تقريباً، يرقص ويحتفل من أجل وحدته..

استمرت الأوضاع متوترة مع بعض الفوضى، خصوصاً أن عدداً كبيراً من الروس يقيمون في البلاد منذ عقود طويلة، وبعضهم أوكرانيون من أصول روسية سيكون ولائهم مرتبطاً بروسيا، لكن الأوضاع هدأت في نهاية العام، خاصة مع إعلان الرئيسي الروسي «بوريس يلتسين» نهاية الاتحاد السوفييتي، وإعلان نفسه رئيسا في «جمهورية روسيا»، لتعم الاحتفالات في كامل أوكرانيا التي أعلنت قبلها استقلالها

الرسمي بعد تصويت شعبي كاسح، فدعته كريستيا إلى قريتها لمشاركتها الاحتفالات الأهلية هناك مع أهلها، وهذه المرة في بلد جديد آخر يتشكل أمام عينيه، مقابل وطن آخر ينهار ويختفي وهو يراه.

ـ إنه عصر التحولات يا مختار.

ترى هل كان الرفيق مثنى يعرف هذا المعنى حين قاله، ربما..

من يدري؟

جريمة الشرف

مع قرب بداية العام الميلادي، قام اتحاد الطلاب اليمنيين بعمل برنامج احتفالي كبير بمناسبة الاستقلال، ومشاركة الأوكرانيين أفراحهم الوطنية، وأعياد الميلاد بثوبها الوطني الجديد.

كان مختار بصفته رئيساً للاتحاد متحمساً للغاية لهذه المناسبة، لاعتبارات خاصة به ولإثبات دوره وريادته.

كان كل شيء يسير بصورة جيدة وطبيعية وكأن القدر يخفي مايمكن أن نسميه بالحظ السيء، أو السير نحو الحظ السيء بإصرار شديد.

أقرت الجامعة حفلة رأس السنة فيها للطلاب المقيمين في كييف، وكان من نصيب الطلاب اليمنيين باعتبارهم الأكثرية من بين الطلاب الأجانب، أن يشاركوا بفعاليات غنائية وراقصة من مختلف المناطق اليمنية الموجودة.

ومع بدء العد التنازلي للعام الجديد، كان الجميع واقفاً يترقب ساعة الصفر التي بدأت، فانطلق الجميع يرقص ويغني ويشرب الخمر، والعشاق يتبادلون القبلات.

وأمام حالة الهيجان كان الجميع يشرب بصورة هستيرية

مـع وقع الأغانـي والرقصات، ربمـا كانت الوحيـدة التي لم تشرب ولم تشارك بحالة الرقص هي عبير.

كانت تحاول قدر الإمكان تجنب الدخول وسط الزحام.

تراقـب بحـذر وصمـت، مـع شـعورها بالفرحـة وسـط الاحتفالات.

كانـت ثقافتهـا اليمنيـة مسـيطرة عليهـا، علـى عكس الشـباب اليمنـي الذين كانـوا مندمجين بالاحتفـالات بتدرج يختلف من شخص إلى آخر حسب البيئة التي جاء منها.

شـاهدها مختار وهي تتجول حيناً وتقف بعيدة عن الزحام أحيانـاً، لكنه فضّل مراقبتها بصمـت، خصوصاً وأن رائحة الخمر كانت تفوح منه، ليس بسـبب شـربه، فهو لم يشـرب سـوى القليل، ولكن بسـبب الكميـة الهائلة التي سـكبت فوقه من الجموع، وبينما كان مندمجاً وسط الرقص وتبادل التهاني مع الجميع، سمع صوت صراخ أنثوي يجيء من الجهة التـي رأى فيهـا عبير لآخر مـرة، فالتفت ليجد شـاباً إفريقياً يحتضن عبير ويريد تقبيلها بالقوة، وهي تصرخ وتحاول دفعه بكل قوة.

لـم يـدر مختـار بنفسـه إلا وهـو يجـري باتجاهها بصورة هسـتيرية، ولـم ينتبه إلى أنه تناول قـارورة فودكا ممتلئة من فـوق إحـدى الطـاولات وهـو يجري، حتـى وصل إلى الشـاب

الأفريقي وضربه على رأسه بالجزء السفلي من القارورة التي في يده خلف رأسه، ليسقط أرضاً ويرتطم رأسه بجدار قصير وهو يتحشرج والدم ينبثق من رأسه حتى ملأ المكان قبل أن يصمت تماماً.

بينما مختار مايزال يلهث وهو يتعرق وسط شتاء كييف القارس، ولم يستوعب بعد مايجري؛ناقلاً بصره بين الشاب المضرج بدمائه، وبين أقدام المحتفلين التي تجمعت حولهم في نظرات تائهة بلا مرسى، وصوت بكاء عبير يصل إلى أذنيه وكأنه قادم من ثقب فضائي بعيد، وأحدهم يصرخ:

ـ لقد مات، لا يوجد نبض.

وآخر يشير باتجاهه:

ـ هذا الذي قتله، أبلغوا الشرطة.

حينها تنبه إلى أنه ما زال ممسكاً بالقارورة في يده، فرفع نظره لأول مرة وهو يرى عبير للمرة الأخيرة تبكي بشدة، وتوقفت أصوات الموسيقى، ولم يعد يسمع إلا صوت الهمهمات، ولا يحس بأي شيء إلا الأصابع وهي تشير إليه وكأنها تخترق جسده بلا رحمة، فجثا على ركبتيه صامتاً لا يفكر بشيء ولا ينوي على أي شيء، حتى وجد رجال الشرطة يحيطون به ويقتادونه إلى الحبس مقيداً بيديه خلف ظهره.

هناك لم يستطع أن يتكلم بأي كلمة، رغم سعي الضابط للتحقيق معه، لكنه لم يستوعب بعد مايجري.

كان الضابط رحيماً معه؛ لأنه علم بالقصة من إدارة الجامعة والطلاب الذين كانوا متواجدين في المكان، وبعض الطلاب الذين جاءوا إلى قسم الشرطة، لهذا فقد أجل الضابط التحقيق معه لليوم التالي وأرسله للحجز الانفرادي.

في الحجز، جلس وحيداً يشعر بالبرد لأول مرة في تلك الليلة، وبدأ يستوعب الحقيقة فبكى ليلتها لأول مرة في كييف حتى نام كأنه ينام في سرير وثير، دون أي شعور، حتى تم استدعاؤه للتحقيق مرة أخرى.

فوجيء بوجود محام أوكراني أخبره بأنه تم تكليفه من «السفارة اليمنية» في موسكو للدفاع عنه، وأخذوا كل أقواله، وأجاب عن كل الأسئلة المتعلقة بالجريمة، وبأنه لم يكن يعرف الضحية، ولم يقابله سوى بضع مرات في الجامعة، ولم يكن بينهم أي خلاف، ولا يعرف حتى من أي بلد هو، وكان هذا هو ما طلب منه المحامي قوله والذي كان هو الحقيقة.

عاد مختار إلى السجن.

في اليوم التالي، جاءت كريستيا لمقابلته بعد أن علمت بالحادثة، وأخبرته بأنه ستساعده رداً لجميله حينما غامر

بنفسه عندما كانت مسجونة، وطلبت منه أن يعطيها أسماء أشخاص يثق بهم حتى تتواصل معهم، وأخبرته أن الفتاة اليمنية عبير بالمستشفى مصابة بانهيار عصبي ومريضة، كما أخبروها.

عاد إلى زنزانته يبكي ويندب حظه الذي وضعه في طريق الدم، وأخذ يلوم نفسه على شربه، مستشعراً بأنه انتهى.

وأخذت صوره وهو طفل تتهمر في مخيلته، وأصوات أمه وأخته أمينة تتسلل إلى أذنيه تستنجدان به من الغرق، حينها أخذ يضرب رأسه بالجدار بكل قوة حتى أغمي عليه دون أن يشعر به أحد، ولم ينتبه إلا على صوت الجندي وهو يناديه، وهو لا يعرف كم مضى عليه من الوقت، حتى دلف إلى حجرة الضابط والدم قد تجمد في رأسه وعنقه.

كان وفد من السفارة اليمنية قد جاء إليه، وعرف وقتها أنه قد مر عليه يوم وليلة نائماً أو مغمى عليه.

كان الوفد مكوناً من شخصين، تحدثا معه على انفراد، وطلبا منه الثبات والصبر، وأخبراه بأنهما لن يتركاه؛ لأن موقفه كان رجولياً وهو يدافع عن ابنة وطنه، وبأنه لن يشعر بالعار بل بالفخر والكبرياء، وبأن الوطن بأكمله سيقف معه، كما أنهم طلبوا من الضابط تنظيف جراحه والاهتمام به بعد أن عرفوا أنه لم يتعرض للضرب أو للتعذيب، وقد

شاهدهما يمنحان الضابط مبلغاً من المال قبل انصرافهم.

ظل مختار في الزنزانة لمدة شهر كامل بدون أي تحرك، وكان الضابط، رئيس الشرطة، بنفسه يشرف عليه ويأتيه باحتياجاته.

كانت الأيام تمر برتابة شديدة ومتشابهة كأنها يوم واحد يدور بلا انقطاع، حتى الزيارات أصبحت قليلة ومبتاعدة، ماعدا بضعة أفراد زملائه في الجامعة بالإضافة إلى كريستيا، وقد عرف من زملائه الذين جاءوا لزيارته أن عبير أوقفت الدراسة لمدة عام وغادرت كييف، ولا يعلمون أين ذهبت.

أما الطلاب الأفارقة فهم غاضبون، وسفارة بلد القتيل كلفت محام لمتابعة القضية، وهذا ماصعب الأمور عليهم للتحرك من أجل التفاوض أو البحث عن أي طريقة لحلحلة الأمور، خاصة أن الجريمة لم يكن مخططاً لها أو نتيجة خلاف ما.

وفي أحد الأيام أعلموه أن هناك مندوباً من السفارة يريد مقابلته في مكتب رئيس الشرطة، بمجرد دخوله غادر رئيس الشرطة غرفة المكتب وتركهما بمفردهما.

ـ كيف حالك يا مختار؟

ـ الحمد لله، مازلت حياً.

ـ لا، لا أريد هذه النبرة التشاؤمية.

أنت رجل، وقمت بموقف شجاع، ونحن واجبنا الوقوف معك كما وقفت أنت مع ابنة بلدك ودافعت عنها، بغض النظر عن أي شيء.

ـ شكراً لك، ولكن ماذا ستفعلون، أقصى مايمكن فعله تخفيف مدة الحبس لبضع سنوات.

ـ مايمكننا فعله هو إخراجك من السجن وإعادتك إلى الوطن.

ـ إخراجي؟ كيف ستخرجونني؟

وماذا عن الدراسة في الجامعة أنا في السنة الرابعة؟

ـ انسَ الجامعة، وانسَ كل شيء هنا.

لدينا خطة كاملة لتهريبك من هنا، وقد قمت بمناقشة الخطة مع رئيس الشرطة، وساعدتنا صديقتك كريستيا بالعثور على سياسي أوكراني لديه علاقة صداقة مع رئيس الشرطة.

ـ أقدّر هذا وأشكركم عليه جميعاً، ولكن كيف سأغادر البلاد وجواز سفري معهم، وحتما سأكون على قائمة الممنوعين من السفر.

ـ اترك كل شيء لنا، وفي الوقت المحدد سنخبرك

بكل شيء، أرح نفسك ولا تقلق.

نهض مندوب السفارة مغادراً، وعند وصوله للباب قال:

ـ سوف أبقى هنا في كييف حتى موعد خروجك.

كريستيا ستأتي في الغد لمقابلتك، ولا تخبر أحداً بما دار بيننا مطلقاً.

ـ شكراً لك.

انصرف مغادراً الغرفة تاركاً إياه متذبذب المشاعر تائه الأفكار، على الرغم من كمية الأمل التي سمعها من مندوب السفارة، لكن تشاؤمه زاد دون أن يعرف هل سيفرح أم يحزن، وهو يرى مستقبله التعليمي ينهار، وكذلك مخططه السياسي يتلاشى، وهاهو سيعود إلى الوطن كما جاء إليه، هذا إن استطاع العودة، وماذا سيخبر أمه وأخته؟ وبأي وجه سيقابلهما بعد أن وضعها آمالهما وأحلامهما عليه، وهاهو يضيع كل شيء.

لم يعد يشعر بأي رغبة في تغيير وضعه، وسيان إن تم إعدامه أو سجنه أو تهريبه، لقد وصل لمرحلة التساوي في مشاعره بين الأبيض والأسود، وبين النور والظلمة.

كل مايحزنه هو التفكير في أمه وأخته وما سيحدث لهما إن بقي في السجن.

وبعد مرور أسبوعين آخرين، استدعاه رئيس الشرطة بعد منتصف الليل إلى غرفته، وقام بإعطائه ملابس عادية وطلب منه ارتدائها، ثم قام بمرافقته إلى الخارج حيث توجد سيارة مدنية، فوجئ أن مندوب السفارة كان بداخلها مع كريستيا، وما أن صعد إليها حتى انطلقت مباشرة.

وجه مندوب السفارة الذي كان يجلس في مقدمة السيارة إلى جانب السائق حديثه قائلاً:

ـ أهلاً مختار، كيف حالك؟

ـ أنا بخير كيف حالك أنت؟ وكيف حالك كريستيا؟

ـ أنا بخير عزيزي، حزينة جداً لما حدث لك.

عاد مندوب السفارة للحديث بصوت حازم:

ـ سنتجه الآن لمحطة القطار، وسوف تغادر إلى موسكو مباشرة برفقة كريستيا كسائحين، وهناك سنتكفل بالباقي.

بمجرد وصولك توجه للسفارة مباشرة.

ـ هل أخذتم جواز سفري من الشرطة؟

ـ للأسف لم نستطع فعل ذلك، رئيس الشرطة أكد لنا أن جواز سفرك موجود بالنيابة العامة ولايمكن استعادته، لهذا قمنا بجلب جواز سفرك القديم التابع لجمهورية اليمن

الديمقراطية الشعبية الموجود بالسفارة في موسكو، حينما قمنا بإصدار الجوازات الجديدة بعد تحقيق الوحدة احتفظنا بالجوازات القديمة، واليوم سوف نستفيد منها.

ـ وهل أستطيع السفر بها؟

ـ نعم مازال ساري المفعول، وأنت دخلت إلى البلاد من خلاله.

خذ هذه الحقيبة الصغيرة توجد بها بعض أغراضك وجواز سفرك ومبلغ مالي بالروبل والريال وعملات أخرى من باب الإحتياط إذا تعرضت للتفتيش، وفي حقيبة السيارة توجد حقيبة لك بها كل أغراضك في الجامعة، وملابسك.

كانت السيارة قد وصلت إلى محطة قطار كييف، فقام مختار بتوديع مندوب السفارة، وانطلق مع كريستيا لشراء التذاكر.

كان من حسن حظه أن خطوات الاستقلال بطيئة، وأن البلاد لم تتقسم فعلياً، فما زالت هناك الكثير من الإجراءات والخطوات التي تحتاج لإمكانيات أكبر من أوكرانيا وحتى روسيا، خصوصاً بعد حالة الانهيار الاقتصادي التي حدث في السنوات الأخيرة بعد إصلاحات غورباتشوف التي كانت هي المسمار الأخير في نعش الاتحاد السوفييتي.

لم تكن هناك إجراءات فعلية أمام المغادرين وكأنه

يسافر في رحلة داخلية وليست بين دولتين، فمازال الوضع كما رآه آخر مرة حينما ذهب إلى موسكو التي كانت بالمفارقة البحتة، مع كريستيا التي تجلس إلى جواره.

ـ هل تتذكر عندما زرنا موسكو معاً؟

ـ كنت أتذكرها الآن قبل أن تحدثيني.

ـ كانت رحلة مميزة برفقتك.

نظر إليها مختار وهو يقول لها بلطف:

ـ شكرا لك كريستيا على ماتقومين به لمساعدتي.. لقد أرهقتكِ.

ـ أولاً، أنت لم ترهقني، ثم لاتنس أن لك جميلاً في عنقي عندما دخلتُ السجن، خاطرت أنت بنفسك لزيارة أمي في القرية، ولو كنتُ تخليت عنك لظللت أؤنب نفسي إلى آخر العمر.

ـ أنا حزين جداً لكل ماحدث.

لم أكن أتخيل أن كل هذا سيحدث لي حتى في أشد أفكاري سوداوية.

ـ لا تقل هذا يا عزيزي، أنت رجل وماقمت به كان نابعاً من شخصيتك البطولية والقيادية لإنقاذ فتاة من بلدك كانت تتعرض للاعتداء من قبل شخص مخمور.

بسبب هذا الموقف نحن ساعدناك جميعنا ، حتى رئيس الشرطة أبدى استعداده بسبب موقفك هذا.

ثم قالت بنبرة سخرية :

ـ رغم أنه استلم الكثير من المال بسبب استعداده وتعاطفه هذا.

ضحك مختار لأول مرة منذ حدوث المشكلة.

كانت كريستيا تمتلك القدرة على إسعاده وهي صديقته ، كما كانت تفعل وهي حبيبته.

كان يشعر بالأمان وهي إلى جانبه ، لهذا وضع رأسه على كتفها وغط في نوم عميق لم يشعر معه بمسافة الطريق الطويلة على القطار العتيق ، حتى شعر بأنامل كريستيا وهي تربت على شعره الأجعد حتى لا تزعجه وهي توقظه ، واكتشف حينها أنه مازال يحبها وبعمق ، وبأنه يستحيل أن يفترق عنها كأول حب في حياته.

نزل من القطار متوقعاً أن تقبض عليه الشرطة في أي وقت ، لكنه لحسن الحظ لم يشاهد أي شرطي في طريقه ، ولم تكن هناك إجراءات للتفتيش مطلقاً كأي رحلة داخلية بين مدن البلاد.

استقل مع كريستيا سيارة أجرة إلى السفارة اليمنية كما أوصاه المندوب ، وهناك تم إدخاله مع كريستيا ريثما

يتم شراء تذكرة طيران إلى اليمن، وفي المساء كان يستعد للذهاب إلى المطار للمغادرة.

وبعد وداع كريستيا توجه إلى الطائرة مكملاً إجراءات الخروج بهدوء وبلا أي مشاكل.

وفي الطائرة جلس يراقب أضواء موسكو لآخر مرة في حياته.

كان يتأمل الأضواء وسط السواد الشامل الذي يشبه مشواره القصير في هذا البلاد.

«وداعاً موسكو.

وداعاً كييف.

وداعاً كريستيا.

وداعاً أيها المستقبل، فها أنا ذا عائد إلى الماضي من حيث أتيت بلا أي جديد».

وصلت الطائرة إلى مطار عدن وليتها لم تصل، ليتها سقطت فوق جبال آسيا أو رمال الصحراء، شتان مابين رحلاته الثلاث السابقة إلى موسكو والعودة إلى عدن، وبين هذه الرحلة وكأنها للقبر، سيعود كهلاً شاخ في الحبس وتاه في طريقه للمستقبل.

أنهى إجراءات الدخول من المطار بسرعة غير اعتيادية في عدن لم يعهدها سابقاً، يبدو أن الأمور تتغير بسرعة كبيرة.

كان يتمنى لو أنه لا يصل للمنزل، فكيف يواجه أمه وشقيقته؟ وبأي وجه سيخبرهن بما حدث؟

كانت طرقاته على باب البيت ثقيلة ومؤلمة، ولم يفِقه من توهانه سوى صرخات شقيقته وهي تفتح البيت وتراه وتحتضنه بشوق ولهفة، وهي تنادي أمها وتطلب منها المجيء، وهي تبكي لرؤيته وتقبله بحب ولهفة.

وعلى عكس المتوقع كان اللقاء عاطفياً وجميلاً وخالياً من أية أسئلة واستفسارات، وكأن أمه وشقيقته قررتا عدم مفاتحته بالموضوع، بينما هو يكاد أن يحترق من الحسرة بعد أن خيب آمالهما به، وهما تتوقعان منه الكثير على المستوى الشخصي والعلمي والاجتماعي، لكنه قرر انتظار الوقت المناسب لمفاتحة أمه بالموضوع، فلن يستطيع مسامحة نفسه على مافعله بها، وكلما رآها سعيدة بعودته أنبه ضميره أكثر وأكثر، وكأنها اتخذت هذه الطريقة أفضل فرصة لمعاقبته وتأنيبه.

ليلتها بكى كما لم يبكِ من قبل في حياته، وظل ينوح حتى أنه لم يشعر بنفسه إلا في عصر اليوم التالي.

في اليوم التالي، جاءت شقيقته لمناداته حيث أن هناك

فتـاة أجنبيـة تتصل بـه، فذهب مسـرعاً للرد عليهـا فإذا هي كريسـتيا تتصل للاستفسار عن أحواله وعن وصوله، وبينما هـو يحادثها كانت أمه وشـقيقته تتابعـان الحديث باهتمام، وإن لـم يفهمـا شـيئاً لكنهمـا لاحظـا انفـراج أسـاريره وهو يكلمهـا، وبعد الانتهـاء من المكالمة بادرته شـقيقته أمينة بالسؤال:

- هل ستتحدث أم نقوم باستجوابك؟

- حول ماذا أتحدث؟

- حول الفتاة التي اتصلت.

ثم أخذت بمحاولة تقليدها وهي تنطق اسمه، موكتال.. موكتال.

- آها، إذ..

إنها كريستيا.

- كرسيدا.

نطقـت شـقيقته بالاسـم، فانفجـر ضاحكاً ولـم يتمالك نفسه سوى وهو يقوم باحتضانها.

- مازلت كما أنت لم تتغيري.

ثـم حـاول أن تظهر الجديـة على ملامحه وهـو ينظر لأمه التي ظلت صامتة تتابعهما بصمت وحب:

. إنها زميلة دراستي، فتاة طيبة ساعدتها في أحد المواقف، وهي اليوم تطمئن على وصولي.

. أهذا كل شيء؟ أين بقية الحكاية؟

سألته أمينة، بينما هو تصنع عدم الفهم وهو يسألها:

. أية حكاية؟ ماذا تقصدين؟

. حكاية كرسيدا.

ابتسم مختار وهو يجيبها قائلا:

. لا توجد أية حكاية، هي مجرد زميلة ولن نرى بعضنا مجدداً، لهذا اطمئني.

ثم أشار إلى بطنه إشارة تعني الجوع وهو يقول:

. أنا جائع..

ألن تقوما بإطعامي؟

انصرفت والدته على الفور للمطبخ وهي تنادي أمينة للحاق بها لمساعدتها بدلاً من إلقاء الأسئلة.

مرت الأيام رتيبة ومملة بالنسبة له، يكاد أن يكون محبوساً في غرفته، لم يخرج منها سوى للأكل والحمّام فقط، وبعض الاتصالات من الرفيق مثنى من صنعاء التي أصبح يعمل فيها بعد انتقال كل الوزارات والمسؤولين الكبار إليها بعد تحقيق الوحدة، ولم يخرج من البيت مطلقا.

يبدو وكأنه قد قرر معاقبة نفسه بأن يبقى وحيداً مع نفسه.

في أحد الأيام فوجئ بأمه تطرق عليه باب غرفته لأول مرة وهي تستأذن منه بالدخول والحديث معه، وعندما جلست قالت له:

- اسمع يا ولدي، ماحدث أصبح من الماضي بغض النظر عن صوابه أو خطئه، لكن أن تحبس نفسك داخل هذه الغرفة هو خطأ واضح وكبير.

- أنا يا أمي، كنت أدافع عن فتاة يمنية.

قاطعته أمه قائلة:

- أنا لم آت لغرفتك لمحادثتك عما حدث في روسيا، فكما قلت لك أصبح من الماضي، عليك أن تخرج نفسك من حالة الكآبة والحزن والانفراد، منذ شهرين وأنت أسير غرفتك هذه، ولن أسمح لك بالاستمرار هكذا.

- ماذا أفعل بالله؟

رأيت مستقبلي يضيع، وكل ما فعلته أصبح هباء.

كنت على وشك التخرج، وكانت لي شعبيتي وعلاقاتي، كل هذا أصبح لا شيء، من سيقبل بي؟

- أعلم كل هذا، ويعلم الله أني بكيت لأيام طويلة، لكني

فجأة أدركت أن الله له حكمة وقدر.

- أمي، أين الحكمة والقدر فيما حدث لي؟

قاطع أمه بصوت غاضب قبل أن يستطرد..

- أنا قاتل، وهارب من وجه العدالة.

كانت المرة الأولى التي ينطق فيها هذه الكلمة، أو الحقيقة المرة التي يعترف بها للمرة الأولى لنفسه، لهذا فقد بدا مندهشاً لسماعها، أكثر من والدته التي ظهرت على عينيها عبارات الحزن والخوف بشكل واضح لثوانٍ قبل أن تتمالك نفسها وتقول له:

- لا، لست كذلك، أنت بطل، هذه الحقيقة التي يجب أن تعرفها، لم تفعل أي شيء مشين أو خاطئ، بل كنت رجلاً، وحسبما علمت بأن السفارة ساعدتك، الدولة نفسها ساعدتك، ساعدوك؛ لأنك رجل وبطل، وهذا يكفيني.

نهضت بعد إتمام جملتها وهي تقول له:

- لقد كنت ولدي الذي ربيتك وعرفتك، لكنك وأنت منهزم ووحيد في غرفتك هذه لست ولدي ذاك، ربما أبدلوك بشخص آخر، أو ربما أفرغوك من ولدي الذي ربيته.

بقي في غرفته يتأمل الباب حيث انصرفت، أما هي فقد ذهبت إلى المطبخ لإعداد الغداء، ولكنها انهارت بالبكاء

لوحدها ، وكأنها قد أخرجت من جوفها كل عبارات القوة والأمل لتمنحها لولدها حتى أصبحت فارغة لتموت، لم تمضِ نصف ساعة حتى شاهدته وهو يخرج من غرفته، وقبّلها على رأسها مستأذناً منها للخروج.

أما هو فلم يكن يعرف إلى أين يذهب.

السفر يمحو أشياء كثيرة من عقل المسافر، تصبح معه الذكريات هي الوطن والمنزل والماضي، مرت سنوات تغيرت فيها الدولة، بل انتهت، وجاءت دولة أخرى على انقاضها، بدت له وكأنها خلال العام والنصف الماضيين تكونت دولة جديدة من العدم، أشياء كثيرة تغيرت في عدن، لا يعلم إن كانت للأسوأ أو للأفضل، فمازال الوقت مبكراً للحكم على الأمور.

تذكر حينها صديقه سالم وهل سيعود بما أن الوحدة تحققت وانتهى النظام القديم؟ حتى وإن بقي بشخوصه بعد زوال المسميات القديمة للوزارات والإدارات الحكومية، أم أن آثار الحرب باقية في القلوب، وفي جدران بعض الأماكن، وهل يمكن أن تزول آثار الحرب بالحب؟

«سيعود سالم يوماً ما».

عاد في ذلك اليوم مساءً، ولم يكن لديه شيء يفعله بالخارج سوى أن يشعر والدته أنه بخير.

أربع سنوات من الاغتراب جعلته شخصاً آخر، الغربة تسرق الشخص رويداً رويداً، لا يدري بنفسه إلا بعد مرور السنوات بأنه أصبح شخصاً آخر غير ذلك الذي كان قبل أن يُسرق، حتى كلماته مع الذين يعرفهم تغيرت، وكلماتهم معه تغيرت، لهذا فكل الذين التقى معهم من الأصدقاء القدامى في الحي أو زملاء دراسة سابقين يسكنون بالقرب منه كانت كلماته معهم مقتضبة رغم عبارات الترحيب الاعتيادية، لكن سنوات الغربة قطعت حبال الاستمرارية والتواصل بشكل جلي.

بمجرد دخوله للبيت، كانت شقيقته تصرخ به منادية للإجابة على الهاتف في عجل، فهناك مكالمة من الرفيق مثنى من عاصمة اليمن الموحد والتاريخية صنعاء، تطلب منه السفر إليه، حيث أنه بحاجة إليه في العمل دون تأخير، طالباً منه الذهاب للمكتب وتوقيع إجراءات انتقاله للعاصمة باعتباره موظفا منذ سنوات، أما هو فكان من شدة إحباطه متردداً وقد حاول تأجيل السفر مع الرفيق، لكن دون جدوى، فلم يجد بداً أمام إلحاحه إلا أن يوافق على مضض.

أخذت إجراءات انتقاله بضعة أيام بين توقيع الأوراق وتحويل الوظيفة إلى العاصمة التي انطلق إليها مباشرة.

في الطريق، تذكر أيام خدمة التدريس في منطقة ردفان

عندما مر عليها بسيارة الأجرة، وقد شاهد المنطقة تتغير بسرعة كبيرة، والمباني الجديدة تملأ المساحات الخالية التي كان يراها تمتد إلى مالا نهاية، وتذكر حبه الأول سناء، ولحظات التأمل الصامت، وابتسامتها الخجولة، إلى درجة أنه لم يشعر ببعد المسافة والمدن والقرى تطوى أمامهم، وهو يتأمل من نافذة السيارة ملامح الحب القديم مع مزيج من ملامح سناء وكريستيا وعبير، وكأنها فتاة واحدة أحبها عبر كل السنوات، فتاة بابتسامة خجولة، وشعر أشقر، وعينين واسعتين.

صنعاء العجوز التي لا تشيخ

كان السفر بسيارة أجرة مهترئة متعباً؛ لولا حكايات الأشواق والذكريات والحب التي تعلو مع ارتفاع الطريق بين الجبال، وتتحول بين الوجوه مع كل انحناءة ودوران تتخذه السيارة، وتتزاحم في مخيلته الوجوه كلما مر على مدينة أو قرية في الطريق، حتى وصل إلى «نقيل سُمارة».

كانت كل الأحداث تتنامى في رأسه مع الصعود المتتالي للطريق وكأن صنعاء اختارت لنفسها مهراً غالياً هو الجبل وهي تقول للخطّاب:

- إن شئتم وصلي، فاصعدوا للقياي هذه الجبال.

لم يتوقف تصاعد الأحداث في ذكرياته حتى وصل لليلة رأس السنة المشؤومة، وبدأت بعدها الأحداث تتسارع كأنها شريط سينمائي قام أحدهم بتسريعه، مع خفقات قلبه السريعة، وحرارة جسمه، رغم برودة الجو، تضفي على حالته زخماً غريباً، وهو يذهب لإنقاذ عبير، ثم وهو يرى ذلك الأفريقي مضرجاً بدمائه، أو هو بالأصح يرى نفسه واقفاً أمام جسد الضحية وهو ينتفض والدماء تنزف منه، وكأن شخصاً آخر هو من يراقب الأحداث، إلى أن وصل إلى نقطة

إغـلاق باب السـجن عليه، وكان العـرق يتصبب منه بطريقة متزايدة ولم ينقذه سوى صوت سائق الأجرة وهو يقول لهم:

- الحمد لله على سلامتكم..

لقد وصلنا.

انتفض في كرسيه وهو غير مصدق أنه بالفعل في اليمن، بل وفي عاصمتها التاريخية والأبدية صنعاء.

أخيـرا يـا مدينة سـام سـوف نتعانـق ونرتشـف منك عبق التاريخ وحقيقته التي لا تنتهي.

أخـذ يتأمل فـي المباني الحجرية من حوله وقد اغتسـلت بمياه المطر؛ مما أعطاها لوناً أغمق وشـكلاً خاصاً سـحرياً ولذيذاً كتقبيل حبيبة اغتسلت للتو، ومازالت قطرات المطر تتساقط منها.

مشـى وهـو يتأمـل - مندهشـاً ـ زحمـة الناس فـي موقف سـيارات الأجـرة، وأخـذ يسـير يتأمـل فـي الوجـوه والمحال والدراجـات الناريـة، وعربـات الباعـة المتجولين وملابسـهم المختلفة، حتى وجد نفسه فجأة أمام «باب اليمن».

هاهـو ذا الباب الذي أصبح أسـطورة في وجـدان اليمنيين بروعته وضخامته، وكأنه ملاك يحرس مدينة أسطورية.

كانـت بيـوت الياجـور والخطـوط البيضـاء الباهتـة

والقمريات تمنح الرائي عالماً خاصاً ، بمجرد أن ترى «صنعاء القديمة» ببابها ومنازلها وسمائها ، فإنك لن ترى شخصا آخر معك، لا ترى سوى نفسك وحدك، وكأنها مدينتك وحدك، أو هي عرشك الذي ينتظرك.

حاول الدخول عبر باب اليمن، إلا أنه خشي من التوهان وتأخر الوقت، لهذا فقد أخرج نفسه من حالة الدهشة، وراح يبحث عن موقف السيارات التي ستنقله إلى وجهته حيث الرفيق مثنى، وعند وصوله كان الاستقبال حاراً وجميلاً، وإن كان الرفيق مثنى قد بدأ اللقاء بالعتاب قائلاً:

- ماذا دهاك يا رجل؟ لماذا هذا الانعزال والاكتئاب؟

- أنا آسف أيها الرفيق، لكني كلما تذكرت أن مستقبلي ضاع، وكل مابنيته ينهار، لا أستطيع الوقوف.

- أولاً ، عليك نسيان كلمة الرفيق هنا ، الجميع ينادون بعضهم بكلمة «الأخ» أو بالاسم مباشرة ماعدا المسؤولين الكبار، حتى أننا ننادي الرئيس بالأخ الرئيس، وكذلك في وسائل الإعلام، حتما سمعتها بنفسك، وثانياً عليك أن تتوقف عن هذه الأفكار، العالم يتغير يا رجل، أعرف أناساً هنا كانوا متهمين بقضايا قتل وتم حلها قبلياً، وهم يتبوؤون مناصبَ عليا، والأمور تسير بصورة عادية، وأنت كنت تدافع عن فتاة من بلدك، أمام شخص كان يحاول

الاعتـداء عليهـا ، ثم إنه لا أحـد يدري عن الموضـوع مطلقاً ، فتصـرف بتلقائية وطبيعية ، فالأمور في صنعاء سـهلة ، وكل شيء يسـير بالعلاقات الاجتماعية والصداقات ، كلما زادت معرفتك بالناس هنا كلما كان وضعك أفضل وأكثر راحة.

- سأحاول قدر الإمكان أن أتجاوز الماضي.

- لـن تحاول ، أنـت بالفعل قد تجاوزته وهـذا أمر مني لك ، ألا يكفيـك خوف أمك وشـقيقتك عليك ، وهما تريانك تنهار وتحبس نفسك ولا تتحدث مع أحد ، هل هذا يرضيك يا رجل؟

- هل اشتكت أمي إليك؟

- هذا ليس موضوعنا الآن.

أنـا أتابـع أخبـارك ، ولكنـي كنت مشـغولاً فـي الفترة الماضيـة بسـبب آثار حـرب الخليج وعـودة مئـات الآلاف من المغتربيـن مـع تدهور العلاقـات مع دول الخليـج ، وكل هذا سبب ضغطاً اقتصادياً واجتماعياً ليس بالسهل.

- هـل مازالـت العلاقـات متوترة مـع دول الخليـج حتى بعد الوحدة؟

- علاقتهـم مـع الشـمال كانـت جيـدة قبـل الوحـدة ، مع المملكـة تحديـداً ، وكان بإمكاننـا أن نسـتفيد مـن هذا بعـد الوحدة ، لكننا ارتأينا عدم الوقوف مع أمريكا والدول الإمبرياليـة التي تدعمها ضد دولة شـقيقة وجارة ونؤمن معها

بنفس الأفكار والأيدلوجيا في الجنوب سابقاً، وفي الجنوب كان يجمعهم مع العراق مواقف سياسية وأعضاء في مجلس التعاون العربي إلى جانب الأردن ومصر.

- سوف نصمد فنحن أقوياء بوحدتنا.

- نعم، هذا هو ماسيحدث، فنحن التاريخ والحضارة والمستقبل.

في اليوم التالي، ذهبا معاً لاستئجار منزل يقيم فيه مختار، وشراء بعض مايلزم من حاجيات له، ثم العودة وتناول القات مع بعض الأصدقاء والمسؤولين من صنعاء ومناطق أخرى، وكان يستمع للنقاشات والجدل الدائر، وقد لاحظ سقف الحرية المرتفع في النقاشات السياسية كما هو الحال في الصحف المحلية التي كانت تملأ المجلس بأسماء متعددة ومقالات مختلفة، وإن كان الجو العام لحرب الخليج وغزو الكويت، وارتفاع الأسعار وانخفاض العملة هو المسيطر على كل مايجري، لكن الحرية الموجودة كانت تكفي لمعرفة النظام السائر نحو الديمقراطية، خاصة مع وجود النية بإنشاء البرلمان اليمني عبر انتخابات حرة مباشرة من الشعب اليمني لأول مرة.

وفي اليوم الثالث ذهب للعمل لأول مرة في الوزارة رفقة الرفيق مثنى أو الأخ مثنى حسب النظام السياسي الجديد،

وقد كانت وظيفته الجديدة في مكتب مثنى فرصة له لمعرفة الكثير من الأمور والخفايا، لكن أكثر ما أدهشه كان هو تلقي الأموال مقابل التوقيع على الأوراق وإصدار الموافقات، والمدهش أن الرشاوى لم تكن تدفع مباشرة إلى الأخ مثنى، ولكن عبر مدير مكتبه الذي يحتفظ بها إلى نهاية اليوم، ثم يقوم مدير المكتب بعد انتهاء الدوام وانصراف المراجعين باستدعاء الموظفين الذين ساعدوا في إصدار القرارات والتوقيع على الأوراق في المكتب، وإعطاء كل موظف حصته من المال وكان مختار باعتباره موظفاً يستلم حصته وهو غير مستوعب لما حدث.

- ما هذه الأموال؟

سأل مختار بدهشة، فقال له مدير المكتب:

- خذها أولاً، وسوف يقوم الأخ مثنى بشرح هذا لك بنفسه.

وضع النقود في جيبه وهو يشاهد مدير المكتب وهو يدلف لمكتب الأخ مثنى ويخرج منه بسرعة، دون أن يحمل كيس الأموال، ومع خروج الأخ مثنى لاحظ حيرته وبقاءه صامتاً، فابتسم وهو يطلب منه الخروج معه:

- مدير مكتبي سيتم تعيينه في منصب أعلى بعد شهر، ولهذا أريد منك فهم طبيعة عمله، وسيقوم هو بشرح كل شيء لك، فهو شخص جيد وخدوم، وقد أخبرني أنك مندهش

وتستفسر كثيراً، لهذا عليك أن تفهم شيئاً واحداً، وهو أن الجميع هنا يعمل بهذه الطريقة، والجميع يتلقى الأموال من أصغر موظف بالدولة إلى رئيس الجمهورية.

- رئيس الجمهورية؟

- قد تكون مبالغة مني، لكن يمكنك اعتبارها حقيقية.

ثم اقترب منه قليلاً وهو يقول بصوت منخفض:

- المهم، ألا تجعلها مكشوفة وواضحة للجميع، ولهذا ستكون مهمتك كمدير لمكتبي هي تولي هذا الأمر.

سار قليلاً وهو يستطرد:

- جزء من هذه الأموال سيذهب للوزير شخصياً، وهو بدوره يمنحني أموالاً أخرى سوف تستلمها أنت من مدير مكتبه، ويتم توزيعها علينا بدءاً مني، مع باقي الموظفين الذين ساهموا في تمرير المعاملات.

كان مختار صامتاً فواصل هو الحديث قائلاً:

- هل تظن أن بإمكانك دفع قيمة إيجار المنزل الجديد من راتبك الضئيل، أو حتى قيمة القات الذي ستتناوله يومياً، الأسعار أصبحت باهظة جداً مع ارتفاع سعر الدولار، وكل شيء أصبح يرتبط بسعر الصرف يا عزيزي، وقد شاهدت بنفسك الاضطرابات التي حدثت في بعض المدن، وهجوم

المواطنين على المؤسسات الاقتصادية ونهب ماتحتويه، إلى جانب بعض المباني الحكومية والخاصة، وهو مايجعلنا نأخذ احتياطاتنا بما يخص المستقبل والسياسة.

هز مختار رأسه بالموافقة، وهو يسترجع في عقله ذكريات التجارة مع صديقه سالم، وتهريب المواد الغذائية والاستهلاكية معه، فإذا بعينيه تلتمعان فجأة وهو يسأل الأخ مثنى:

.هل مايزال من كنا نسميهم بالطغمة موجودين في صنعاء؟

فوجئ مثنى بالسؤال لكنه قال وهو يضحك ساخراً:

. لا يزالون طغمة يا عزيزي، ولا نزال زمرة إلى أن يرث الله الأرض وماعليها.

بادله مختار بالضحك وهو ينتظر الإجابة من مثنى الذي قال:

. نعم، هم في صنعاء، ولا يستطيعون العودة لعدن حتى اللحظة، ولن يشموا عدن مطلقاً، الوحيد الذي غادر صنعاء واليمن برمتها هو الرئيس السابق في الجنوب، وقد كان شرط القيادة الجنوبية الوحيد لتحقيق الوحدة، فوافقت عليه قيادة الشطر الشمالي.

. وأين يتواجدون؟

. موجودون في صنعاء كمواطنين أو كموظفين، وبعضهم

تـم دمجهم في الجيش بعـد هروبهم من الجنـوب بعد الهزيمة التي تلقوها؟ ..

.....

. لمـاذا تسـأل هـذه الأسـئلة عنهـم؟ هـل يهمـك شـيء؟
. لا ، لا شيء أبداً ، فقط مجرد أسئلة عادية.

. لا تشـغل بالـك بشـيء سـوى عملـك ومصلحتـك، فأنت تخطـو أولى خطوات بدايتـك في العمل ياعزيزي، كما يجب عليـك التخلص من الاندهـاش والتفاجؤ بما حولك، فسـوف تجد كل شيء مختلف هنا ، مختلف وجميل.

نظـر إليـه مختار وهـو يؤميء برأسـه دليـل الموافقة ، وود لـو أنه يخبره بـأن عليه ألا يقلق من هـذه الناحية ، فقد أخبره عن زمن التحولات قبل سـفره إلى موسكو ، لكنه يجزم بأن الرفيـق سـابقاً والأخ حالياً لم يكن يتخيـل أن زمن التحولات يعني انهيار دول وتأسـيس دول عاصرها ، وعاش في خضمها في سنوات قليلة.

كان على مختار البدء في البحث عن صديقه سالم، وهو لايعرف أين يذهب ومن يسـأل أو ممن يستفسـر ، لكنه حتماً سـوف يصل؛ بما أنه في صنعاء مدينـة الإجابات والغموض أو هي بالأحرى مدينة الإجابات الغامضة.

مـع انغماسـه بالعمـل، تخلـص مـن سـطوة الذكريـات

والأحداث التي مر بها ، وأصبح هو يدير المكتب حتى قبل أن يستلم مهامه رسمياً ، وزاد حجم الأموال التي يتلقاها ، وأصبح هـو الذي يجلب المراجعين الذين يرغبون بتسـهيل معاملاتهم وأوراقهـم ، من خلال علاقاته مع كل الموظفين في الوزارة ، لدرجة أن الوزير شـخصياً سـأل عنه لما سـمعه منه ، وأصبح مثـى يعتمـد عليه اعتماداً كاملاً ، واسـتطاع شـراء سـيارة صغيرة يسـتخدمها في مشاويره وفي لقاء المراجعين ، وكما يبدو أنه وجد نفسـه في صنعاء التي أحبها حقاً ـ ومن لايحب صنعاء ـ لكنه بشـكل عـام كان يحب تعز أكثر كمدينة تجاريـة مزدحمـة وحيوية ، وربما لأنها أول مدينة يسـافر إليها بعد محبوبته عدن.

وقد سـمع في أحد الأيام أن هنـاك موظفاً من أبين منطقة صديقه سـالم ، فذهب إليه يستفسـر منه ويسـأله عن أسـرة صديقـه ، وعن أناس آخرين مـن قبيلته ، دون أن يفصح له عن سـبب سـؤاله عنهم ، خصوصاً حين وجد ذلك الشخص حذراً ولا يمنحـه مايريـد ، ومـع ذلك قـرر مصادقة الرجـل ودعوته لتنـاول الغداء والقات عدة مرات ، حتـى أخبره في أحد الأيام أن هناك شـخصاً يمكن أن يفيده بما يريد شريطة ألا يخبره عمن دله عليه.

وبعـد انتهاء الدوام ، ذهب للقاء ذلك الرجل حسـب العنوان

في مكان خارج صنعاء.

كان المكان خالياً وموحشاً، إلا من مبنى كبير يبدو كمستودع كبير وناءٍ، وبمجرد أن توقفت السيارة، حتى فوجيء بمجموعة من المسلحين يحاصرون السيارة وهم يشهرون أسلحتهم الآلية باتجاهه، وقاموا بإخراجه عنوة من السيارة وتفتيشه، ثم دفعوه إلى داخل المستودع، وكذلك قام أحدهم بقيادة السيارة إلى الداخل كذلك، أما هو فلم يكن يدرك مايجري، ولم يستوعب ماحدث مطلقاً، وحاول مراراً وتكراراً أن يستفسر منهم عن سبب خطفه، وماهو الدافع لهذا، ولكنه لم يتلق أية إجابة على الإطلاق، وبقي على هذه الحال مشدوداً بوثاق محكم، ويداه خلف ظهره حتى المساء، وهو لم يتوصل لأي معلومة.

حتى سمع صوت سيارة قادمة، وأضواؤها تتخلل باب المستودع بصورة طفيفة وسط الظلام الدامس الذي كان يقبع به، وسمع صوت أبواب السيارة تفتح ثم تغلق، وأصوات أقدام تقترب وأحاديث مبهمة تصل إلى أذنيه، دون أن يميزها بين القادمين والخاطفين، ثم بباب المستودع وهو يفتح قبل أن تشتعل الأضواء دفعة واحدة بعينيه.

شاهد أربعة أشخاص مسلحين يقتربون منه، ويتقدمهم شخص سمين بلحية كثة كان يحجز الضوء بجسده

الضخم، فلم يستطع تبين ملامحه بدقة وهو يلكزه بطرف سلاحه بقدمه، وهو يقول له بصوت بدا مألوفاً:

- ماذا تريد؟

- جئت أبحث عن أشخاص أعرفهم، ودلوني على هذا المكان، ولم أفعل أي شـ...

- من هم الذين تريدهم؟ ماهي أسماؤهم؟

قاطعه صوت الرجل السمين بحزم، فأجابه قائلا:

- سالم ناصر عبدالله وأسرته.

- ماذا تريد من سالم؟

- إنه صديق عمري، ومنذ سنوات طويلة لم نلتقِ بسبب ظروف الحرب والسفر.

- من أنت؟ ماهو اسمك؟

- اسمي مختار أحمد عبدالوهاب.

مرت ثوانٍ من الصمت قبل أن يسمع صاحب الصوت نفسه يسأله:

- أنت مختار؟

بدا له الصوت مألوفا بصورة أكثر من قبل، صوت اختزل سنوات وسنوات من عمره ولحظاته التي تركها خلفه وهو يفكر ويخمن ويضرب أخماساً في أسداس، لهذا فقد حاول

النهـوض رغم وثاقه الشـديد والجميع واقـف يراقبه بصمت، وكأنهـم ينتظرون إشـارة ما للإجهاز عليـه، لكنه في نهاية المطـاف وقف على قدميـه وهو يتأمل صاحـب الصوت الذي ظـل واقفاً بلا أية ملامح، وبمجرد أن اتضحت ملامحه لعينيه حتى صاح:

- سالم..

أنت سالم.

ثـم قفـز يحتضنه لكنه فوجئ به يقـف صامتاً وهو يبعده برفـق عنه، فيتراجع خطوات إلى الخلـف وهو يهمهم بكلام متحشرج:

- سالم..

أنا صديقك مختار، هل تتذكرني؟

بقي سـالم صامتاً لـم يتحدث بأي كلمة، وهـو ينظر إليه بنظرات حازمة قبل أن يستطرد:

- ماذا يجري يا سالم؟ لقد بحثت عنك كثيراً في عدن وفي صنعاء، ودائماً أتذكرك في مذكراتي.

- ماذا تريد مني؟

اسـتقبل مختار سـؤاله بصدمة بالغة، لكنه استجمع قواه وهو يرد عليه:

- أريد منك مايريده الصديق لصديقه والأخ لأخيه، ماذا تظن أن الأخ يريد من أخيه.

- أخ؟

- نعم الأخ..

أنت أخي الذي لم تلده أمي.

- هل يقتل الأخ أخاه؟ هل يسرق الأخ أخاه؟

- أنا لم أسرقك ولم أقتلك، تلك الحرب لا علاقة لي بها وأنت تعرف هذا..

كنا أطفالاً كل همنا أن نكسب المال لنلهو ونستمتع بملذات الدنيا، أنت أكثر من يعرف هذا، وبيتك لم أسرقه..

بل حافظت عليه واضطررت فقط لتسجيله باسمي حتى تعود.

بدت علامات الدهشة على وجه سالم هذه المرة بعد ملامح الجمود الحازمة وهو يقول:

- ماذا تعني بكلامك هذا؟

- أنت تتهمني بأني سرقتك، ويعلم الله بأني قمت بحماية منزلكم، واضطررت لتسجيله باسمي حتى لا يستولي عليه أحد المسؤولين الكبار كما فعلوا بكل البيوت الأخرى التابعة للمنهزمين.

. وكيف أثق بك وأصدق كلامك؟

. إذا ذهبت إلى المنزل ستجد على الباب من الداخل لافتة مكتوب عليه (منزل سالم)؛ لأنه منزلك.

لحظات صمت قبل أن يوجه مختار سؤاله لسالم:

. ألم تكن تعلم أني أخذت المنزل؟

. لا.

. ولماذا تتهمني بالسرقة والقتل؟

. أنا أتحدث بشكل عام.

. ومادخلي بهذا أيها الغبي؟ هل أعماك الغضب عن تمييز الصديق من العدو.

صرخ أحد الموجودين بوجه مختار طالباً منه التحدث بأدب، لكنه توقف بإشارة من سالم الذي ظل صامتاً، ومختار يواصل الحديث قائلاً:

. الحرب كانت بين بضعة أشخاص هم بالأساس أصدقاء وزملاء كفاح ضد بريطانيا، اكتوى الشعب بنيرانها، ويبدو أن النيران سوف تستمر بالاشتعال إلى مالا نهاية، كان الأحرى بالمواطنين عدم التدخل بها.

. تطلب من المواطنين عدم التدخل وهم أكثر من تضرر بتلك الحرب، هل تعلم أن زملاء والدي في المعسكر أحاطوا

به ووثقوه لمجرد أنه ينتمي لمنطقة الرئيس، وكانوا بانتظار الأوامر بقتله، لولا أن أحدهم استطاع تهريبه في اللحظة الأخيرة، رغم أنه أعلن الحياد والوقوف مع الوطن، فالجيش هو ملك الوطن وليس ملكاً لشخص أو لقبيلة.

. سألت كثيراً عنكم، وذهبت لمنطقتكم، وكل الذي حصلت عليه أنكم لجأتم إلى الشمال، وفي كل مذكراتي حتى في روسيا أنت موجود، وهي معي بإمكانك قراءتها.

. هل ذهبت إلى روسيا؟

. نعم، ذهبت للدراسة، ولم أكمل بسبب ظرف طارئ.

. ماهو؟

. ليس هذا وقته، سأخبرك لاحقاً.

. هل صحيح أنك احتفظت بمنزلنا؟

. نعم، وتستطيع أخذه في أي وقت.

. حالياً لا نستطيع العودة للجنوب، مازلنا ممنوعين من العودة لديارنا ولقاء أهلنا وأرضنا.

. ألم يحن الوقت لتتناسي الآلام ودفن الأحقاد اليوم بعد تحقيق الوحدة اليمنية؟

. الآلام ليست جهازاً يمكن إيقافه بضغطة زر، والأحقاد لا تدفن والمقابر مازالت طرية، كيف يمكن نسيان كل

هذا من طرف واحد بينما الطرف الآخر جاء إلى صنعاء بذهن المنتصر، ومازال يرانا مهزومين وفارين، والكل يعلم أنهم وافقوا على الوحدة هرباً من الفشل والانهيار الذي قادوا به جنوب الوطن للهاوية.

- لم تكن الدولة فاشلة يا صديقي، بل كانت دولة قوية، وحقوق الفرد محفوظة.

- أي حقوق بالله عليك؟ هل تعرف لماذا قتلوا والدك؟ هل تعلم لماذا كنا نقوم بتهريب المواد الغذائية من شمال الوطن؟ كان الآلاف من المواطنين يهربون إلى شمال الوطن حتى يحصلوا على حريتهم وكرامتهم، ويقبل بهم الأشقاء كعمال في دول الاغتراب.

انتبه سالم إلى أن صديقه لايزال موثقاً، فقام بفك وثاقه واحتضانه، وبكيا كثيراً وسط ابتسامات ودهشة الموجودين.

أصر سالم أن يأخذ صديقه لمنزله، وأن يتعشيا معاً، ويواصلا حديث الذكريات والسياسة الذي لا ينتهي، وهناك سأل مختار صديقه سالم قائلاً:

- يبدو لي أنك لم تعد تشرب الخمر؟

لكن ماهو أفضل أنواع القات لديك؟

- يا صديقي، ألا ترى لحيتي..

لقد تاب الله علي من كل أنواع المحرمات.

- هل القات حرام؟

- نعم، هو حرام وبإجماع كل علماء المسلمين ومشائخهم.

- لماذا؟

- كل شيء يضر الجسم والمال، ويهدم البيوت، ويلهي عن عبادة الله فهو حرام.

- لأول مرة أسمع هذا الكلام، ولكن أين يذهب الناس في هذه البلاد بدون القات، فلا ملاعب ولا نوادٍ للشباب ولا مسارح ولا أماكن للترفيه وتضييع الوقت، وحتى المكتبات العامة غير موجودة.

- المرء يا عزيزي لا يحاسب على ماهو غير موجود، ولكنه يحاسب على مايقوم به.

هز مختار رأسه مستغرباً، وبنفس الوقت لا يريد الاستمرار في الجدل الديني، فيكفيه الجدل السياسي الذي دار سابقاً ومازال يعتمل في نفسه ولم ينتهِ بعد، ويبدو أنه لن ينتهي، لكنه أراد جس صديقه ومايفكر فيه فقال له سائلاً:

- هل كنت ستقتلني لو لم أخبرك عن المنزل؟

فوجئ بصديقه يضحك بصوت عالٍ وهو يجيبه وسط الضحكات العالية:

- هـل تعتقـد أني صدقتـك بخصوص المنزل؟ ثـم إن هناك شـيئاً أخفيه عنك، ولو أخبرتك به سـتعرف أني أفضل منك، ولـم أنسـك يومـاً، ولم ولن أفكـر حتى مجـرد التفكير في أذيتك، ناهيك عن قتلك أيها الأحمق.

- بخصوص المنزل أقسم لك بالله أني كنت صادقاً معك، وتستطيع أخذه في أي وقت، ثم ماهو الشيء الذي تخفيه عني.

- الموضـوع يطـول شـرحه، والمنزل هو ملـك للوالد، ولو كان ملـكاً لي لتنازلت لك عنه بطيب خاطر، أنا يا صديقي أصبحت رجـل أعمال كبير، وقد بدأت التجارة معك، وعند هروبنـا كان لدي مبلـغ كبير من عملنا وهـو الذي بدأت به التجارة.

- جميل جداً، وفقك الله.

عاد سالم للضحك مرة أخرى وهو يقول:

- ألم تفهم بعد؟ هذا المال هو مالنا معاً.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك شريك لي في كل شيء.

- أنا؟

- نعم.

- ولكـن الحكاية قديمة، والأمـور تغيرت، ولا أريد منك

مالاً مطلقاً.

. دعك من كل هذا ، هل مازلت تظن بأني كنت سأقتلك في المستودع.

. بالتأكيد لا يا عزيزي، ولكن الغضب في عينيك كان كبيراً.

. إنه غضب السنوات والهزيمة والغربة، لم أكن أعرف من أنت قبل رؤيتك، وعندما رأيتك للمرة الأولى لم أستطع رؤيتك كصديق، رأيت في وجهك سنوات المرارة والحرمان التي عانيتها مع أهلي وفي وجوه الجميع، لم أميز وجهك أمامي من بين كل القتامة والغضب.

. لا بأس يا صديقي.

. ها قد التقينا ولنبدأ معا مجدداً، وفي أرض جديدة هذه المرة.

. أين تعمل الآن؟

. مدير مكتب وكيل وزارة التجارة والصناعة الأخ مثنى الردفاني.

. حقا؟ أليس هذا عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي؟ هذا سيوفر علينا المعاناة والتكاليف في استخراج التصاريح، هل عرفت كيف تدار الأمور هنا ، إنها

تختلف عن عدن، فهي أكثر حرية وسهولة وسخاء.

قالها وهو يشير بأصبع يده إشارة تعني المال، فهز مختار رأسه إشارة الفهم والثقة.

في إطار الاستعدادات للانتخابات البرلمانية القادمة؛ قام الرفيق مثنى بعمل دورات لكوادر الحزب وأعضائه في صنعاء، وكان الحزب واثقاً كل الثقة من الحصول على كل الأصوات في المدن الجنوبية التي مازالت تقع تحت سيطرته، وكذلك الحصول على الأصوات في بعض المناطق الشمالية، خصوصاً أنها كانت على تواصل مع قيادات الجنوب طول العقود الماضية.

وبصفته الوظيفية والحزبية كمرافق للأخ مثنى، كان مختار مرافقاً له في كل التحركات والدورات التدريبية التي أشرف عليها لتدريب الأعضاء على كيفية التعامل مع الانتخابات، وبالتالي تم تكليفه بالإشراف على الدورات التدريبية التي ستقام في ردفان خلال الفترة القادمة.

وعند وصوله للمنطقة، وجد أن المنطقة كما شاهدها عند سفره إلى صنعاء قد أصبحت مدينة كبيرة، على عكس المرة الأولى التي كان يقضي بها فترة الخدمة الإلزامية في التدريس، وبمجرد وصوله كان في استقباله أعضاء الحزب الاشتراكي الذين رتبوا له مكان الإقامة وترتيب حاجياته.

في اليوم التالي، بدأ في الصباح أولى ورش التدريب والاستعداد، وفي مساء ذلك اليوم أخذ يبحث عن منزل الأستاذ هيثم مدير المدرسة، فوجده بعد بحث طويل بسبب تغير شكل المدينة وبناء الكثير من المنازل، وكان اللقاء ودوداً وطيباً، ورحب به كثيراً متذكراً إياه، خصوصاً مع إعاقة يده السابقة ولونه الأسمر، وكان بود مختار لو يسأله عن سناء، لكنه وجد أن الأمر لا يليق بكليهما، فانصرف وفي قلبه غصة بحجم حبه لها، لهذا فقد قرر الاقتراب منه والاستفادة من وجوده باعتباره من أبناء المنطقة، وكذلك لدوره التعليمي واحترام الجميع له في الدورات التدريبية، كما أنها ستكون فرصة له للبقاء قريباً منه، ومعرفة أخبار ابنته.

. سناء.

وخلال فترة بقائه في ردفان، كان يذهب كثيراً لزيارة والدته وشقيقته في عدن، فالمسافة قريبة، على عكس صنعاء، واستعاد هناك ذكريات ماقبل السفر، ووهج الشباب وحماستهم، وتعرف على الكثير من الشباب، وكسب الكثير من الصداقات، وأصبح الأستاذ هيثم صديقاً له، يجتمعان معاً في برنامج الدورات التدريبية، ثم في جلسات القات بعد الظهر، ودائماً ماكان يستضيفه في منزله لتناول

وجبات الغداء، وفي إحدى المرات استغل حالة الود والعلاقة القوية، خصوصاً بعد أن أغدق عليه بالمال والعلاوات الإضافية التي كان يدفعها من جيبه في الأساس، في أن يستفسر منه عن أسرته وأبنائه، فعرف حينها أن ابنته سناء قد تزوجت قبل عامين، وأن زوجها حالياً مصاب بالسرطان ولايملكون المال الكافي لعلاجه.

أحس وقتها بالحسرة؛ لأنه جاء متأخراً، كما أن الظروف الصعبة التي مر بها، ووضعه الاجتماعي كلها عوامل تشكل عائقاً أمام التقدم لها، لكنه وعد الأستاذ هيثم بأن ينظر في أمر علاج صهره بالخارج على نفقة الدولة-إن كان يستطيع ـ فبمجرد وصوله لصنعاء سيتابع الأمر.

وبعد مضي شهرين كاملين أنهى فترة التدريب والإعداد بصورة جيدة، فكان لزاماً عليه العودة إلى العاصمة لاطلاع الأخ مثنى وبقية قادة الحزب على ماتم خلال الدورات التدريبية.

عند عودته لاحظ أن زملاءه في الوزارة أصبحوا ينادونه باسم مختار الردفاني، وكان يود أن يعترض، لكنه عرف أن الأخ مثنى أخبر الجميع أنه في زيارة لمسقط رأسه في ردفان، فتقبل الأمر، خصوصاً وأنه في صنعاء، حيث القبيلة والأصول هي التي تحكم الجميع.

ومع إنهاء شقيقته للثانوية العامة قرر أن يحضرها مع

والدته إلى العاصمة لدراسة الجامعة والاستقرار معاً، ولأنه كان يحتاج للمال لهذا الغرض، فكان صديقه سالم هو مصدر الأموال، وكذلك منحه سيارة صغيرة تكفي لمشاويره وقضاء أعماله، ولم يكن مختار يعتبر نفسه شريكاً لصديقه كما أخبره، بل كان يعتبرها قروضاً تستوجب السداد بمجرد تمكنه من ذلك.

وكان سالم منشغلاً بشكل كبير، سواء في عمله أو في لقاءات أخرى لا يعرفها مختار، ونادراً ماكان يقابله، وفي كل مرة يتقابلان فيها؛ تكون السياسة هي لب الحديث والجدل بين طرفي نقيض، لكنهما يجدان في النهاية نقطة يتفقان خلالها، أو يقنعان أنفسهما بأنهما متفقان.

لم ينسَ موضوع صهر الأستاذ هيثم، حيث قام بإجراء اتصالاته من خلال العلاقات التي نسجها، ثم اتصل بالأستاذ هيثم طالباً منه القدوم إلى صنعاء ومعه صهره وكل الأوراق اللازمة للحالة الصحية وأوراق السفر، وفوجئ عند قدومهم أن سناء كانت معهما، مازالت طفلة جميلة رغم ملامح الحزن في عينيها، والحجاب الذي يغطي شعرها الطفولي الأسود، لم يعرف ماذا يفعل وقتها.

هل يصافحها؟

هل يتحدث معها؟

هل تسمح العادات الجديدة بذلك؟

لكنه بدا متحفظا للغاية، واكتفى ببعض الهمهمات الترحيبية التي لا تكاد تشكل جملة واضحة.

كان زوجها مريضاً وشاحباً بشكل بالغ، ولم يجد في مشاعره نحوه سوى التعاطف مخلوطة ببعض مشاعر الغيرة وهو يشاهد سناء تمسك به أحياناً وتسنده في أحيان أخرى، وقد عجب لنفسه كيف يشعر بالغيرة من شخص مريض، وهو قبل كل شيء زوجها، يبدو له أنه ما يزال يحبها وأن حبه الأول اشتعل مجدداً بعد سنوات.

أخذهم إلى الفندق، وبمجرد أن اكتملت إجراءات المنحة الحكومية للعلاج في دولة الهند؛ قام بحجز السفر لثلاثتهم مباشرة، وعند توديعهم في المطار، التفتت إليه سناء مصافحة إياه وشكرته على جهوده معهم، أما هو فاعتبر ذلك هو أفضل مكافأة له على الإطلاق، لكنه استفاق بعد أسبوعين على اتصال في مكتبه، ففوجئ بأنه من الأستاذ هيثم يخبره أن صهره توفي وهو يتلقى العلاج في المستشفى، فقام بمواساته وطلب منهم العودة مباشرة، وبعد يومين كان في استقبالهم في المطار والحزن يملأ أعينهما، وكانت سناء تغطي وجهها بطرف الحجاب المنسدل، لهذا فقد قرر أخذهما إلى منزله بدلاً من تركهما في الفندق، وفي المنزل

تولت والدته وشقيقته مواساة سناء وتعزيتها ، وقد حرص على أخذ الاستاذ هيثم في اليوم التالي لمكان عمله في الوزارة؛ لرؤية مكانته وشعبيته هناك، قبل أن يستأذن منه الأستاذ هيثم للرحيل إلى منطقته، حيث ينتظرهم الجميع في اليوم الثالث.

بعد شهرين من العمل والانشغال، كانت عطلة رأس السنة قد أوشكت على القدوم، فاقترح على والدته وشقيقته أمينة أن يقضيا الإجازة في عدن، والاستمتاع بالبحر الجميل، والتخلص من شتاء صنعاء القارس، وهو مارحبتا به، خصوصاً أمينة التي اشتاقت لمدينة عدن وصديقاتها.

قام مختار بأخذ سيارة ذات دفع رباعي من سيارات صديقه سالم تكفي لحمل أغراضهم.

عند مرورهم على منطقة ردفان؛ توقفوا للسلام على الأستاذ هيثم والاطمئنان عليه وعلى أسرته، وقد ألح عليهم للبقاء للغداء والمبيت لديهم كنوع من التقدير ورد الجميل، لكن مختار أصر عليه بالسفر معه إلى عدن وتغيير الجو، ولا بأس من اصطحاب ابنته سناء، فهي مع والدته وشقيقته، وسوف تعتنيان بها ، فهذا أفضل من البقاء من المنزل وسط أجواء الحزن، وفي آخر المطاف، وافق على السفر معه.

كانت عدن مع العودة إليها في كل مرة تفاجئه دون أن

يعرف سبب ذلك.

الدهشة هي أول ما يعتريه من شعور بمجرد الدخول إليها، لكنها هذه المرة مختلفة، وهو يحاول أن يرسم مستقبله رفقة أول حب عاشره وأنقاه، مازال لا يدري إن كانت ستوافق أو أن الأمر غير مناسب له، وبعد مرور أسبوع عادت سناء برفقة والدها إلى منطقتهم، وقد رآها سعيدة ومنشرحة كما كانت حين رآها لأول مرة.

- مختار، ولدي.

انتبه من أفكاره على صوت والدته وهي تناديه، ويبدو أنها نادته مراراً، واصلت حديثها له سائلة:

- بم كنت تفكر؟ هل أنت مشغول؟

- لا، يا أمي، تفضلي.

- في الحقيقة، أود الحديث معك عن الزواج.

- ألن تتوقفي عن الحديث عن هذا الأمر.

- بالتأكيد لن أتوقف، فأنا كأي أم تحلم برؤية أبنائها يكبرون ويتزوجون وينجبون أحفاداً، وأنا أريد أن أرى أحفادي قبل أن أموت.

- أطال الله في عمرك يا أمي، لا تتحدثي هكذا مرة أخرى.

- المهم، أريدك أن تتزوج، فأنت لم تعد صغيراً، والمفترض في عمرك أن يكون لك طفل أو اثنان.

- يبدو أنك مستعجلة جداً.

- أنا لا أمزح.

- حسناً، ومن هي سعيدة الحظ هذه المرة، فأنت لا تفاتحيني بموضوع الزواج إلا عند رؤيتك لإحداهن، فقد عرضت عليّ نصف بنات صنعاء للزواج.

- سناء.

بدت الدهشة على وجهه حالما نطقت أمه بالاسم، فابتسم في قرارة نفسه لنجاح الجزء الأول من الخطة، ولكنه قرر أن يتصرف بطبيعية، فقال لها متصنعاً الاستغراب:

- ولكنها متزوجة، أعني أرملة.

- مازالت صغيرة، وزوجها عاش مريضاً لعام ونصف إلى أن توفي، كما أنها جميلة ومؤدبة.

ثم اقتربت منه وهي تلكزه على فخذه مكملة:

- وتحبك.

- أنا؟ تحبني أنا، وما أدراك بذلك؟

- لا يحتاج الأمر لذكاء كبير بالنسبة لامرأة مثلي، فهي دائمة السؤال عن أحوالك وعملك وكل شيء يخصك، حتى

أن أمينة قالت لي نفس الشيء.

- أختي أيضاً تعلم، لن أهدأ من كلامها وتلميحاتها أبداً.

- ماذا قلت الآن؟

- فيمَ؟

- في الزواج يا ولدي؟

- أمي، يا حبيبتي، لا توجد لدي مشكلة في الزواج، ولا في سناء، فأنا أعرفها من صغرها.

- نعم، لقد حدثتني عن أيام التدريس، وعنك في ذلك الوقت.

- أجل، ولكن المشكلة هي في الظروف الاجتماعية السائدة.

قاطعته أمه سائلة:

- ماهي المشكلة في هذا؟

- علينا أن نكون واضحين مع أنفسنا، نحن من طبقة المهمشة «الأخدام»، هكذا ينظرون إلينا.

- نحن لسنا من طبقة المهمشين، فأصولنا تنتمي إلى منطقة أخرى، نزح أجدادنا بسبب ظرف معين إلى عدن، فعشنا في وسط الخيام لفترة من الدهر حتى جاءت الدولة وبنت لنا بيتنا الأول الذي ولدت أنت فيه، ثم إن بشرتنا أفتح من المهمشين،

ولا نختلف عن الكثير من أبناء القبائل والشرف الرفيع.

قالت العبارة الأخيرة مع الكثير من التهكم المر .نعم، وأنا لا أنكر هذا ، ولكني أخبرك بالطريقة التي يرانا الناس بها.

.وماذا يعني هذا؟

.هذا لا يعني شيئاً مطلقاً ، إذا استطعتُ تدبر الأمر بطريقة ما ، فأنا موافق على الزواج من سناء.

.حقاً؟ وماذا ستفعل؟

.أنا قد فعلت منذ سنوات طويلة ، الأمر مرتبط في عدم معرفة أحد لأصولنا ، الجميع في صنعاء يناديني بلقب الردفاني منذ فترة طويلة ، لهذا يجب أن نخفي أي شيء عن أصولنا وماضينا ، إذا كان هذا يناسبك فسوف أتزوج من سناء حتى بعد أسبوع إن أردت.

.ولكن؟

.الأمر لا يحتمل لكن، بغير الذي أخبرتك به لن أتزوج من سناء، ولن يزوجني أحد إلا من نفس طبقتي، أو البحث عن منطقة أخرى لا تعتمد على الأصول والتعقيدات القبلية في علاقاتها ، أو من بلد آخر.

.هل تقصد كرسيدا؟

أتاه صوت شقيقته أمينة من خارج الغرفة، إذ كانت تتصنت على حديثهما، فقال لها وهو يشير لها بالدخول:

- اسمها كريستيا أيتها اللئيمة.

حينها قالت له والدته بهلع وهي تخشى على ولدها أن يسافر ولا يعود:

- لا زواج من الخارج، موافقة على كلامك.

نهضت أمينة وهي تقول:

- أنا أيضا موافقة، لكن بشرط أن تشتري لي كمبيوتر.

قال لها مختار مازحاً:

- كمبيوتر؟ هل تعلمين أن الوزارة بأكملها لايوجد فيها جهاز كمبيوتر.

- هذا شرطي وأنت حر.

- وأنا موافق.

- حقاً؟

أخذت تقفز وهي سعيدة، ثم أخذت تحتضنه، بينما أمهما كانت تمسح دموعها الصامتة لعدة أسباب.

الديمقراطية المُرَّة

عاد إلى صنعاء والمظاهر الديمقراطية تملأ كل الشوارع والأرجاء والمقايل كما هي عدن، وإن كانت أقل حدة نتيجة سيطرة القبضة المرتخية للحزب الاشتراكي التي خفت كثيراً عن ذي قبل، وفي مقيل مثنى كان النقاش مفعماً بالحماس والتنظير مع الكثير من الترقب والشكوك، فمالم تظهره مشاورات الوحدة وتقاسمات مابعدها، أظهرته الديمقراطية بحدها اليمني الأدنى.

سمع الكثير من العبارات والجمل الثورية السابقة التي كان يسمعها وهو طفل في عدن، ولكن في ثوب ديمقراطي، فبدلاً من التوجه الاشتراكي، والزخم الثوري، والكفاح المسلح، والنضال، والإمبريالية، أصبح يسمع عبارات التوجه الديمقراطي، والانتخابات، والحرية، وأعداء الديمقراطية، والقبلية، والمشاركة.

هي نفس الألسن ولكنها تحورت بما يناسب المكان والزمان بصورة مدهشة يعجز عنها كل علماء الأحياء البارعين.

مع أنه كان يستشعر رياح التغيير والتحور سابقاً لدى

كل من كان يعرفهم، وكأن المبادئ السابقة لا تناسب أجواء صنعاء.

كان العمل مضنٍ طوال الثلاثة أشهر التي سبقت موعد الانتخابات؛ لدرجة أنه لم يشعر بأنه لم يرَ صديقه سالم منذ خمسة أشهر كاملة، فحاول التواصل معه على هاتفه السيار الذي يحمله في سيارته دون جدوى، لهذا فقد قرر الذهاب إليه في منزله أو في شركته، وقد وجده مساءً في منزله، فأصر سالم على أن يخرجا لتناول العشاء في أحد المطاعم، وهناك بدأ هو بالاعتذار لصديقه عن انشغاله قائلا:

- أعتذر لك، لقد ذهبت إلى عدن كما أخبرتك، وحين عدت كنا على موعد الاستعداد للانتخابات القادمة.

- أصبح حزبكم يؤمن بالديمقراطية.

- لو أردت رأيّ فسوف أقول لك بأنه لا أحد يؤمن بها.

- المشكلة أنهم لا يؤمنون بها، ومع هذا هم يرتبكون الآثام بالفعل الحرام المخالف للشرع.

- بغض النظر عن كونها حراماً أم لا، فلا أحب أن أخوض في نقاشات دينية، هي يا صديقي لعبة يحبون ممارستها.

- هل تظنون أنكم سوف تنتصرون بها؟

- وفق عدد السكان، لن يكون هناك انتصار بمعنى

الانتصـار الذي فـي مخيلتك، لكن الحصـول على الأصوات فـي الدوائر الجنوبيـة، ثم محاولة الحصـول على أي عدد من الدوائر في الشمال، هو انتصار بحد ذاته.

- حتى في الجنوب أنتم تملكون التأثير الأيدلوجي السابق، ولكنكم لا تملكون الرغبة الديمقراطية.

- هـذه هي لعبة الديمقراطية يا عزيـزي، من يملك التأثير ينجح، وفي كل دول العالم توجد مناطق أكثر انسـجاماً مع حزب أو تيار معين من سواها، وهذا لا يعيب.

- الـذي يعيب أنها هناك تأتي طبيعية، وهنا تأتي مشـوهة؛ لأنها لا تناسب ديننا ولا تقاليدنا ولا يفهمها الناس، ولو سألت الناس في الشارع ستعرف هذا.

- هل تتوقع أن تسير الأمور بصورة طبيعية؟

- لا أعتقـد أن هنـاك مشـاكل سـتعرقل الانتخابات، رغم معارضـة الكثيـر مـن التيـارات الإسـلامية، والمجاهديـن العائدين من أفغانسـتان، لكني أعتقد أن المشـاكل ستبدأ بعد الانتخابات.

أبدى مختار اهتمامه لكلام صديقة فسأله قائلا:

- ماهو نوع المشاكل؟

أخذ سالم يقهقه بصورةٍ لفتت أنظار الحاضرين في المطعم

قبل أن يجيبه قائلاً:

- يا صديقي، الصدمات التي ستحصل لكل الأطراف بعد الانتخابات كافية لأن تجعل المشاكل تتكاثر كالباكتيريا، حتى في ظل انعدام الهواء ستزيد، وهذا الزخم الموجود حالياً، والخطابات التنافسية، والتأجيج، وإظهار عيوب المتنافسين وأحزابهم، هو أشبه بمعركة شتائم في سوق الغنم.

- لكن الجميع يعلم أنها منافسات ديمقراطية مقتصرة على الانتخابات.

- هذا في الدول الأخرى التي لديها تجارب وعقود في الانتخابات، وتناسب مجتمعاتهم وقيمهم، أما لدينا فإن كل مايقوله تيار معين بحق الآخرين يظل عالقاً في العقول، ويكسي القلوب بالحقد والبغضاء، الناس لا يفهمون أن كشف العيوب المنافسين ينتهي بعد أسابيع.

- وماذا عن خطب المساجد والتحريض الديني ضدنا.

- هو جزء من اللعبة التي تسميها ديمقراطية.

- لكنك تقول بأنها حرام، ولا يشاركون فيها، ولا ينتمون لأي طرف.

- نعم، أنا قلت بأنها حرام، ولن يشارك فيها أحد ممن يرى بأن الإسلام هو منهج الحياة والسياسة، ولكني لم أقل بأنهم

لا ينتمون لأي طرف.

ثم أخذ يقهقه مرة أخرى بينما مختار يدور في تساؤلاته وأفكاره التي ظل يستعيدها طوال الليل بصورة متتالية، وهو يبحث عن خفاياها وتفاصيلها، لكنه بعد تلك الليلة قرر أن يتغير سياسياً، بل إنه قرر أن يكون التغيير هو منهجه الثابت الذي يسير عليه طوال حياته في ظل كل المتغيرات والمتغيرين والمتناقضين، بدءاً من مثنى الذي فوجئ به وهو يتحدث عن الديمقراطية بحماسة السياسي، وكأنه كان طوال عمره ديمقراطياً مع أنه هو الذي علمه أولى خطوات الاشتراكية والقبضة الشيوعية، وفكرة الدولة القوية التقدمية، وانتهاءً بصديقه سالم الذي يرى أن الديمقراطية حرام في الإسلام، لكنه في نفس الوقت يؤيد فكرة مناصرة تيار معين، ويرى أنها واجبة شرعاً.

أما هو فلم يعد يعرف ماذا يريد سياسياً؟ ومن يؤيد؟ بقدر ماهو ولاء وعرفان للرفيق السابق والأخ الحالي مثنى، فلم يعد اشتراكيا، ولم يعد يردد تلك العبارات التي كان شغوفاً بها، فقد نسيها تماماً، حتى في أفكاره الخاصة.

ومع ذروة الحمى الانتخابية وانشغال الجميع بها بين المتابعة والإدارة والتنفيذ، كان مختار قريباً جداً من دائرة القرار في الحزب الاشتراكي وأحزاب أخرى تعرف عليهم

أثناء العمل، وكانت الابتسامات تعلو وجوه الجميع علناً، بينما في السر كانت عمليات الضرب تحت الحزام هي السائدة لدى الجميع، ومع انتهاء الانتخابات وإعلان النتائج اعتبرها الحزب الاشتراكي هزيمة له، واعتبرها المؤتمر وحلفاؤه نصراً، بينما النصر الأكبر كان في شعور الحزب الاشتراكي بالهزيمة، فليس هناك ماهو أسعد من رؤية خصمك أو منافسك يتجرع مرارة الهزيمة، أما هو فكان على موعد مع مباراته الأهم والأجمل في حياته وهو زواجه من سناء، لهذا كان يحاول إيجاد الوقت المناسب لمفاتحة مثنى بالأمر، خاصةً أنه ينتمي لنفس المنطقة، وكانت هذه هي أصعب نقطة يجب عليه تجاوزها، لهذا كان عليه أن يصبر حتى يجد الوقت المناسب، حتى انتهى الشهر الأول بعد مضي الانتخابات حين وجد نفسه وحيداً مع مثنى، فبدأ حديثه متردداً:

- هل أنت بخير أيها الرفيق.

ضحك مثنى بكل قوة وهو يقول:

- ماذا تريد يا مختار.

- لا شيء، فقط أردت الاطمئنان عليك.

- نحن هنا منذ الظهر نأكل القات ونتحدث، وفجأة تسألني عن حالي.

ثم التفت إليه وهو يسأله بسعادة:

- ثم ماهي قصة الرفيق هذه التي ظهرت فجأة؟

ابتسم مختار قائلاً:

- هكذا خرجت الكلمة من نفسها، ألا تشتاق إليها؟

- إلى حد ما، لكنَّها تذكرني بأيام البساطة والفقر والشعارات البراقة.

- قل لي ماذا تريد؟

- في الحقيقة، أنا، أنا، أريد منك خدمة.

- ماذا؟ هل تريد كل هذه المقدمات؟

- بصراحة، أريد أن أتزوج.

- حقا؟ من هي هذه بنت الكلب التي استطاعت أن تجبرك على الزواج ونسيان بنات روسيا، أنت ولدي، ولا تحتاج لكل هذه المقدمات لكي تفاتحني بموضوع بسيط كهذا.

- أعلم هذا، إنه شرف لي، وقد منحتني عطفك وودك طوال كل هذه السنوات، المشكلة ليست في الزواج.

- أين هي المشكلة إذن؟

- في منطقة العروسة؟

- من أين هي؟

بدت على وجه مختار علامات التردد والخجل وهو يقول:

. إنـ..

إنها من ردفان.

. حقا؟ وماهي المشكلة في هذا؟

كان يتوقـع مختـار أن يغضـب منـه أو يتحـرج، فاكتفى بالصمت وهو ينظر إليه، فواصل هو حديثه:

. هل تقيم في صنعاء؟ من هو أبوها؟

. هـي تقيم في ردفان هـي وأهلها.

-هل هم الذين ساعدتهم على السفر إلى الهند؟

ـ أجـل، لقد كان المريض زوجها، وهي أرملة، ووالدها كان هـو مديـر المدرسـة الـذي عملـت لديـه أيـام الخدمـة الإلزامية.

ـ إذن هي معرفة قديمة أيها اللئيم.

اعتدل في جلسته وهو يتحدث بجدية قائلاً:

ـ عندما جعلتك تذهب إلى ردفان وقتها - إن كنت تتذكر ذلـك - أخبرتـك بأني أريدك هناك لسـبب ما ليس هذا وقته، وربمـا هذا وقته، وأنت ذكي وسـوف تفهم السـبب بنفسـك الآن، إن لم تكن فهمته بعد، الجميع هنا يناديك بالردفاني، وسـأقف معك في إتمام الأمر، وسيكون لك أهل وجذور في المنطقة.

ـ هل تقصد بأنك أرسلتني إلى هناك كي..

ـ لا داعي للحديث في هذا الأمر حالياً..

حدد موعد الذهاب، وسوف أكون معك في وفد رسمي يهز المنطقة كلها.

ـ يكفيني أنت بألف وفد، وجودك معي هو كل ما أريده.

ـ لا تقلق لهذا، حدد الموعد واترك الباقي لي.

بعد أسبوع قام بالنزول إلى ردفان مع والدته وشقيقته يرافقه أستاذه، وتم الترحيب بهم كما تقتضي التقاليد، واستمع للزوامل الشعرية التي يلقيها اليمنيون في مثل هذه المناسبات، وكان هناك الكثير من القات والحديث، خصوصاً وأن بعض الحاضرين يظهرون على التلفاز والصحف المختلفة، وقبل نهاية اليوم وافق الأستاذ هيثم على طلب الزواج بعد أخذ موافقة سناء، فانطلقت الزغاريد، وأطلقت الأعيرة النارية بشكل مكثف، وتم تحديد المهر وباقي التفاصيل، وأن يكون الزفاف بعد شهرين.

عاد مختار إلى صنعاء لتجهيز نفسه ومنزله للزفاف بحماسة كبيرة، إلى درجة أنه لم يعد يرى مثنى سوى في مكان العمل الذي انشغل بدوره بتبعات ما بعد الانتخابات وحصول حزب المؤتمر المنافس على الأغلبية، وقد لاحظ

مختـار هذا الشـيء، خصوصاً بعد تشـكيل حكومة مابعد الانتخابات، فأراد أن يستشف ما قد يحدث في الفترة القادمة حينما بدأ يتحدث مع صديقه سالم ذات مساء قائلاً:

- هل ستحضر حفل زفافي؟

- إن كان في صنعاء فسـوف أتكفل بكل شـيء، وهدية زفافك سـتكون منزلاً في نفس الشـارع الذي أسكن به في منطقة حدة.

- حقـاً؟ شـكرا لك يا صديقـي، لكن هذا يعنـي أنك لن تحضر؟

- أولاً، هذا مالك، فأنت شريكي، ثم إنك تعرف الظروف، نحن مازلنا في وضع اللاجئين، ومازالوا يتعاملون معنا بعقلية المنتصر.

ابتسم مختار وهو يقول:

- إنهـا المـرة الأولى التي لا توجه فيها الكلام لي باعتباري من الطرف المنتصر.

- كانت مرحلة الغضب وأنت صديقي، كما أنك أصبحت منا.

- منكم؟

- أقصد بأنك تأقلمت مع الوضع في صنعاء، ولَم تعد مؤطرا

بالعقد والأيدولوجيات السابقة.

ـ لم تعد الأيدولوجيات الاشتراكية موجودة لدى أحد.

ـ يا صديقي، القالب يزول، لكن الشكل أصبح ثابتاً ومستمراً، الأيدلوجيا تشبه قالب الإسمنت الذي يصب به ثم تقوم بإبعاد القالب، هل مازال هذا القالب لديكم أنتم؟ هل ينطبق هذا الكلام عليكم؟ ـ بالنسبة لنا فالهزيمة كسرت القالب والإسمنت، ولَم يعد ما يربطنا بتلك الأيدلوجيا سوى بعض الشظايا الصغيرة غير المؤثرة.

ـ إلى أي مدى يكون تأثير تلك الشظايا؟

ـ إلى حد الأخذ بالثأر.

ـ هل تظن أنه بإمكانكم هذا؟

ـ كل المؤشرات تقود لهذا يا عزيزي.

ـ أي نوع من المؤشرات؟

ـ أخبرتك يا صديقي، الحزب الاشتراكي سعى إلى الوحدة؛ لأنه أوشك على الإفلاس، نظام معزول إقليميًا ودوليا، والاتحاد السوفيتي كان مشغولاً بنفسه وقتها وأنت تعلم هذا، لهذا كانت الوحدة بالنسبة له هي هروب، ولكن عبر القفز إلى الأمام.

ـ لكن علي سالم البيض حقق بعض التأقلم مع محيطه باتفاق المبادئ حول الحدود مع "سلطنة عمان".

ـ نعم، ولكن هذا غير مؤثر، فتأثير عمان الدولي محدود، على العكس من الجارة الكبرى التي كان تطوير العلاقة معها سينقذه من الانهيار.

ـ لا أتفق معك بخصوص الانهيار.

ـ دعني أوضح لك الأمر بطريقة مباشرة.

لماذا سعى الحزب الاشتراكي لتحقيق الوحدة بكل هذه التنازلات، متنازلاً عن العملة وعن الرئاسة والعاصمة وأمور كثيرة.

لماذا اندفع للوحدة دون أخذ عدد السكان بالاعتبار فنسبة 1:

5 نسبة كبيرة جداً، والغريب أنه وافق على الديمقراطية والانتخابات بالاقتراع المباشر وهو يتوقع الفوز.

ـ هل تعتقد أن الأمور سوف تتأزم.

ـ إنها متأزمة بالفعل، والصحف كل يوم تنقل أخبار الاعتراضات والخلافات، خصوصاً مع وجود طرف ثالث.

ـ هل تقصد الإخوان؟

ـ نعم، فهم متحالفون مع حزب المؤتمر، ويبدو لي أنهم

سيكونون في الواجهة السياسية، لمواجهة الأيدلوجيا الاشتراكية بالأيدلوجيا الدينية، وهم سيندفعون بكل قوة مقابل المكاسب السياسية التي سيحصلون عليها كطعم سياسي.

كان مختار يشعر بالحيرة وقتها لكنّه تمتم قائلا:

- يبدو أنكم مستعدون.

أسرع مختار باستعداداته للزفاف وتجهيز المنزل الجديد، وكان يود لو يتحدث مع مثنى عن تطورات السياسة مابعد الانتخابات، لكنّه كان يشعر بقلقه، فخشي أن يزعجه، أو بالأحرى كان يخشى أن يلغي حضوره لحفل زفافه هو الآخر، لذا فقد فضل تأجيل هذا لما بعد شهر العسل، حتى جاء الموعد المحدد، حيث قام بالسفر إلى ردفان قبلها بيومين رفقة مثنى والكثير من الأصدقاء من أعضاء الحزب الاشتراكي، ومن أبناء صنعاء الذين يعرفونهم، وكان الزفاف على الطريقة التقليدية المتبعة، وتم السير في موكب الزفاف إلى مدينة عدن.

كان يسترق النظرات نحو سناء بين الحين والآخر، لكنه لم يستطع لمسها سوى مرة واحدة، حينما أخرجها والدها من المنزل وسارت إلى جواره حتى السيارة فساعدها على الدخول إليها.

كانت تجلس صامتة إلى جواره بينما كانت والدته وشقيقته تجلسان في المقاعد الخلفية، وفِي الفندق في عدن، كان اللقاء الحقيقي بينهما.

كانت سناء تشبه حمامة بيضاء في مخيلته، أطلقها لسنوات ثم عادت إليه أو عاد هو إليها بصورة أكثر دقة إلى درجة الاندهاش من تصاريف القدر الربانية.

في غرفتهما بالفندق كانت سناء تقف خجولة بلا حراك حينما اقترب منها ممسكاً بيديها وهو يقول لها شعراً لأول مرة في حياته:

هاتي يَديكِ على يديَّ لتسمعي

دفق الهوى وَوجيبَ مافي أضلعي*

وَلتتركي لُغةَ الأكفِّ تشي بِنا

عبر الخطوطِ وعبر رعش الإصبعِ

كان يتأمل في ملامح وجهها المائل للأسفل، حينما رفع يديها للأعلى مقبلاً إياهما وهو يشعر بهما باردتين من التعرق والخجل، أما هو فكان كل مايستطيعه في تلك اللحظة هو أن يتأمل ملامحها، حتى أنه لم ينتبه لنفسه حين ضمها إلى صدره بهدوء مستنشقاً بنفس عميق بعض زهورها البرية الفواحة.

بعد أسبوع من الجلوس في الفندق والتنزه قليلاً، قرر مختار أن يذهب إلى تعز لقضاء باقي شهر العسل، حيث ظلت هذه المدينة الجبلية تراود مخيلته حينما زارها طفلاً وهو في المدرسة، خاصة وأن اعتدال جوها في الصيف يغريه كعريس جديد برفقة حبيبته.

كانت سناء تشعر بالسعادة، فبدت منطلقة وسعيدة، على عكس ما كان يراها سابقاً، فعزى ذلك للظروف التي مرت بها، ومع وصولهم إلى تعز شعرا بالهواء العليل يداعب أنفاسهما المتعطشة للحب والجمال.

تبدو تعز أقل إدهاشا من المرة الأولى في ناظريه كأنها تصبح مألوفة للأبد، كأنها منزلك الذي ولدت فيه وغادرته طفلا ليظل في مخيلتك كبيراً وواسعاً، وحين تعود إليه بعد سنوات تراه صغيراً لكنك تحبه.

لا يمكن لأي شخص أن يكره تعز، لكن بعض العشق مؤذٍ.

مع التغلغل في المدينة لاحظ أنها أصبحت أكثر ازدحاما عن السابق، وكأن عودة المغتربين من دول الجوار بعد حرب الخليج منحت المدينة طابع التكدس والكثافة دون أن تشعر.

كانت سناء سعيدة بالجو المعتدل للمدينة، وبدت أكثر

جمـالاً في ناظريه، ونسـيمات الصيف البـاردة تداعب وجهها الرقيـق، فكانـت تحتضن ذراعـه في كل مكان يسـيران إليه وكأنها تخشـى أن تفقده، وفي أحـد جولاتهما إلى جبل «صبـر» الشـامخ الذي يحتضـن المدينة تحـت قدميه بحنان، سألته قائلة:

- هل يمكن أن تعيد لي الأبيات التي قلتها ليلة زفافنا؟

- أية أبيات؟

- التي قلتها وأنت تمسك بيدي في غرفتنا بالفندق.

ابتسم بدوره وهو يعيدهما على مسامعها، ليجدها سارحة وكأنها تستعيد ذكرى بعيدة قبل أن تسأل:

- أبيات جميلة ومعبرة، من هو الشاعر؟

- هما بيتان فقط، أما الشـاعر فلا يهـم، من تهم هي التي قيلت لها الأبيات.

- من هي؟

- سناء هيثم.

اتسعت عيناها وهي تنظر إليه بدهشة وهي تسأله:

- هل تقصد أنك....؟

- نعم هي لي.

ثم قام بإمساك يدها ويضعها على قلبه وهو يقول:

وَدَعي الأناملَ في سهوبِ يديكِ كي
ترعى الهوى وَنعيشُهُ حُلُما..
دَعي لا تعجبي هذا فؤادي في يدي
فلتمنَحيهِ النبضَ.. أو فلتمنَعي

لاحظ إعجابها الممزوج بالدهشة وهو يستطرد منبهاً:

لستُ شاعراً، هي المرة الأولى التي أقول فيها الشعر، ويبدو أنها لن تكون الأخيرة، فهناك تكملة ولابد، طالما أنك معي، وعيناي تشاهدان وجهك كل يوم.

حضنت ذراعه بحب كبير وهما يتأملان من السيارة مدينة تعز من فوق جبل صبر، كخلية نحل ممتدة ومتشعبة وضيقة، وكأن الله منح الجبل هذه المدينة حتى يعرفه الناس.

اتصل بمثنى في صنعاء للاطمئنان عليه، وعندما عرف مثنى أنه في تعز، طلب منه ضرورة الذهاب لزيارة الأستاذ «عبدالحميد صالح مكرد» النائب البرلماني عن دائرته في تعز، فلا مناص لكل اشتراكي يزور المدينة من زيارته، حتى وإن لم يكن اشتراكياً صريحاً، وأعطاه بعض أرقام الهواتف للتواصل بها.

وفي مقر الحزب الاشتراكي اليمني استقبله العاملون في المكتب، وهم بالتبعية سياسيون، وفي المكتب يتواجد

رئيس الفرع مع الأستاذ عبدالحميد وشخصيات أخرى لا يعرفها ، كانوا يتحدثون عن الأوضاع السياسية ، وكان الأستاذ مكرد يجيب عن الأسئلة أكثر مما كان يتحدث ، لهذا فقد استغل مختار الفرصة ليسأله :

لقد شاهدت صورك الانتخابية التي ما زالت معلقة على جدران المنازل والمحال ، وهي أوراق صغيرة بالأبيض والأسود ، على عكس منافسك الانتخابي المباشر عن حزب المؤتمر الشعبي العام الذي يملك صوراً ملونة وكبيرة ، وكذلك مرشحي حزب الإخوان « التجمع اليمني للإصلاح «الذين يملكون إمكانيات ضخمة كما يبدو ، انتبه الأستاذ مكرد للكنته العدنية الواضحة التي يعرفها جيداً ، حينها اعتدل في جلسته مجيباً :

. مرحباً بك أولاً في تعز ، وللإجابة على سؤالك يجب علينا أولاً فهم طبيعة الناس هنا ، فهم بطبعهم اشتراكيون ، ولكن دون اشتراكية ، على العكس من عدن ، وحديثي هنا عن عدن المدينة ، فهم قد عاشروا الاشتراكية ولكنهم ليسوا اشتراكيين ، لذا فإن وجود شخص يثقون به ينتمي إلى تيار يحبونه ، ومع قليل من دعم الأحزاب اليسارية - وهذا ليس سراً - مع المصداقية ، فهذا يكفي للفوز.

. لكن الحزب كان يضع آمالاً عريضة على تعز ـ

تحديداً ـ وباقي المناطق الوسطى للفوز بنسبة كبيرة تضمن له بقاء المحاصصة بين طرفي الوحدة.

اعتدل الأستاذ «مقبل» في جلسته وهو يقول:

ـ الحزب الاشتراكي دخل الوحدة بصفاء نية، ولَم يكن يعرف الجانب المظلم من الشمال، هو فقط شاهد الضوء وانطلق بحماسة كبيرة، ولو كان استشارنا أو استشار الخيرين من أبناء الوطن؛ لأخبرناه عن الجانب القبلي القبيح، واستغلال الدين، والفساد المتغلغل في عمق المجتمع.

تعز منذ خمسة عشر عاماً تواجه حرباً ضروساً لتغيير قناعات أبنائها وأفكارهم؛ حرباً تداخل فيها الديني مع القبلي مع العسكري، وخلطه بأساليب العصابات؛ لينتج لنا ما شاهدته من خسارة كبيرة.

ولو كانت الانتخابات قبل خمس سنوات، لحققنا أغلبية كاسحة في المناطق الوسطى.

أما في المناطق القبلية في شمال الشمال، فالوضع معقد ودراماتيكي بشكل دائم، ولا يمكن أن تنتج تلك البيئة ديمقراطية.

وقد كان على الحزب الاشتراكي توحيد الجنوبيين أولاً، ورعاية مصالحة شاملة قبل الدخول في أي مشاريع سياسية كالوحدة والديمقراطية.

قال أحد الحاضرين سائلاً:

ـ هل ستؤثر مشاكل حرب يناير وماقبلها، خصوصاً في بعدها المناطقي، على أي خطوات مصالحة؟

ـ أعتقد أن موضوع المصالحة لم يعد مطروحاً حالياً ولن ينجح، ولا تظن أن الشمال لم تحدث به حروب مناطقية منذ قيام الثورة، فحروب المناطق الوسطى هي حروب مناطقية صرفة، وكذلك التخلص من الاشتراكيين والناصريين بعد مقتل الرئيس «الحمدي»، ولكن التنوع السياسي أخفى العيوب المناطقية بضم بعض أبناء المناطق المستهدفة، بينما في الشطر الجنوبي، وفي ظل واحدية الحزب، فإن المناطقية أصبحت هي عامل الاستقطاب والظهور داخل الحزب الواحد.

ـ هل ترى أن ماتحقق حتى الآن لا يشكل حداً آمناً للديمقراطية؟

ـ شخصياً، لا أرى فائدة من برلمان يرأسه شيخ قبلي أمي لا يحسن الحديث ولا القراءة، وكل ما يملكه هو قبيلته التي لا توجد في كامل أراضيها مدرسة إعدادية أو ثانوية، وأصبح رئيساً لبرلمان لا يملك أغلبيته، وإنما لأنه شيخ قبيلة الرئيس.

أحس مختار بتطابق الحديث مع ما أخبره به صديقه سالم، وإن كان يقف على النقيض تماماً، فبالتناقض والاختلاف تكتمل الصورة، وبجمع جانبي الكرة تكتمل

الصورة وحقيقة اللعبة.

انتبه من أفكاره حين بدأ شخص آخر يسأل الأستاذ مكرد عن مدى ما يمكن الوصول إليه، وإلى أين يمكن تصل الوحدة.

أجاب بهدوء كما هي عادته:

. لا أستطيع أن أخبرك بالدقة أين ستقف المحطة الأخيرة، أو حتى استمرار الطريق، لكني سأخبرك بأن الأمر يعتمد على مقدار التنازلات التي يقدمها الحزب، أما الطرف الآخر، فهو يريد التهام كل شيء، ولا جدوى من هذه المسرحية التي يسمونها كذباً بالديمقراطية، ولو كانت حقيقية لما كنت في تعز بشكل متكرر، وقد تلقيت تهديدات وتلميحات عديدة من صنعاء، وقد لاحظتم عمليات الاغتيال الممنهجة في صنعاء ضد كوادر الحزب ومقراته، وفي مناطق أخرى كذلك.

استمر في الإجابة على الأسئلة ومناقشتها بصدر رحب، وكان حديثه شيقاً ومنطقياً كمقالاته التي يكتبها في الصحف، لكن المنطق لا تسير به الحياة، غير أنه أدرك حجم المخاطر والصعوبات من شخص صادق وعظيم بحجم الأستاذ عبدالحميد صالح مكرد، وأن اليمن في مرحلة المرض، والله وحده يعلم إن كان سيتجاوزها أم يقع فريسة له.

أنهى شهر العسل في تعز بعد ثلاثة أسابيع، عاشر فيها المدينة كما ينبغي، ومع تعرفه على شباب الحزب الذين كانوا أدلته في المدينة وأماكنها وكشف أسرارها، مع زوجته سناء التي جعلت للمدينة رونقا آخر في مخيلته لن يفارقه ما عاش.

عاد إلى صنعاء حيث كانت شقيقته قد أنهت اختبارات آخر العام في كليتها، فوعدها بجولة ترفيهية في صنعاء تعوض ما فاتها في تعز هي ووالدته، لكن عليه أولاً زيارة مثنى والسلام عليه، وحينما وصل إلى منزله كان مثنى غاضباً ويصرخ:

- لقد خدعنا ووقعنا في الفخ.

- لكن الانتخابات انتهت على أكمل وجه.

- لا أدري إن كنت تمزح أم تتكلم مصدقاً لهذا الهراء يا مختار، وأنت معنا، وقد شاهدت بنفسك عمليات التزوير، ووصلت إلينا التقارير الكاملة واطلعت عليها بنفسك، وكذلك عمليات التهديد بحق مرشحينا، واختطاف الناخبين في بعض الدوائر.

- يا عزيزي لم أكن أمزح، وأعلم بكل هذا، ولكننا في مجتمع يمارس الديمقراطية لأول مرة في حياته.

- لقد شاركنا في الوحدة بقلوب مفتوحة ونوايا صادقة.

- الوحدة هي أنقى ما تم تحقيقه في تاريخ الشعب في الشطرين.

نهض مثنى من مجلسه وهو يشير له بأن ينهض قائلاً:

- تعإل معي، سأريك شيئاً ما.

اتجه إلى النافذة وأزاح الستارة رويداً وقال مخاطبا إياه وهو يشير لنقطة ما فوق الرصيف:

- هل ترى ذلك المجنون على الرصيف؟

- نعم، أراه منذ فترة عند مدخل العمارة.

- إنه جاسوس.

بدت الدهشة على وجه مختار وهو يسأل مندهشاً:

- إسرائيلي؟

- وماذا تريد إسرائيل منا؟ نحن فقط نتجسس على أنفسنا، وحدها «مصر» من تحملت عبء مواجهة إسرائيل نيابة عن العرب والمسلمين، إنه جاسوس من الأمن السياسي في صنعاء.

- هل يعقل هذا؟ كيف عرفت بهذا؟

ثم قال وهو يعود لمجلسه هازاً رأسه باستنكار:

- إنه مجنون في الشارع ومتسخ بشكل مقزز.

- يا عزيزي.

. سـوف أسألك سـؤالاً واحداً، ألم تر مجانين في أماكن أخرى؟

. لا يحضرني في الوقت الحالي تذكر أماكن معينة.

. ألا يوجد مجنون أمام الوزارة التي نعمل بها؟

. نعم.

. إنهم في كل مكان نتواجد به جميعاً من أكبر شخص إلى أصغرهم، ولو ركزت ستجد أحدهم أمام منزلك أيضاً.

. هل هذا معقول؟!

. لقد اغتالوا كوادرنا في صنعاء وفي مدن أخرى، وفجروا بعض مقراتنا، ماذا تبقى إذن؟

. ربما يكون طرفاً ثالثاً.

. لمـاذا علينـا البحث عـن طرف ثالث وهم يملـؤون الدنيا ضجيجـاً بالفتـاوى والتكفير ضدنـا، الطـرف الثالث مهما كان، هو منهم، وهم من يدعمونه؟

. وإلى أين ستصل الأوضاع حسب رؤيتك؟

. مازلنا نرى أنفسنا مسؤولين عن الوحدة ولَن نصبح أتباعاً، ولايمكـن أن نكـون طرفاً ثالثاً بعد أن كنا طرفاً أولاً نملك النصف، ولهذا سـنقدم بعض المقترحات والأفكار لتصويب الخلل الذي حصل.

تـرك مثنى غاضبـاً كما رآه، وانصرف وكل الذي وصل إليـه في أن اليمن أمام مفترق طرق، وكأنه كان على موعد متجدد مع التحـولات وولادة وانهيار الدول، وتذكر صديقته كريستيا وحديثها عن أوكرانيا، ومعاناة الولادة والانبثاق في سـنوات الاندماج والتبعية، فيراها تتجسد أمامه، والمدهش أن مثنى هو نفسـه من طلب منه معايشة التحولات عند إرساله إلى الاتحاد السـوفيتي، والأكثر إدهاشـا أن كل التحولات جـاءت على عكس مايريده مثنى وهـو أيضاً بالتبعية، ماعدا تحقيـق الوحـدة قبـل ثلاث سـنوات مـرت بسـرعة، وظهرت نتائجها بسرعة أكبر.

تبقـى أمام مختار صديقه سـالم ليجمـع خيوط الآراء حول مايجري من تسـارع للأحداث، خصوصاً مـع اعتكاف نائب الرئيـس فـي عدن ورفضه لأكثـر من مرة العـودة إلى صنعاء وتقديـم الاقتراحات حول شـكل السـلطة الجديـد، وكأن الانتخابات التي وافقوا عليها مجرد لعبة ومسرحية.

لاحظ أثناء سـباحته مع تيار أفـكاره، أنه لم يعد منجرفاً في حماسـته، وأصبح أكثر تمهلاً في مشـاعره ومواقفه، لم يعد ذلك الاشـتراكي الذي كان سـابقاً في عدن، حتى وهو يشـاهد مسـتوى التطور في موسـكو، كان يخلـق الأعذار لنفسـه حول مسـتوى بـلاده المتدنـي، والفـارق المهـول بين

المدينة في عدن والريف، رغم أن بلاده بمجملها لا تساوي حتى شارعاً واحداً في مدن أخرى.

حينها تذكر حديث والدته وتحذيراتها حول السياسة وسمها القاتل، وتذكر نشاطاته أيام المدرسة الابتدائية وسط أبناء المناطق المختلفة، وعزمه على اتخاذ منهج الحياد للنجاة، وهو ماسيفعله في صنعاء بكل تأكيد، والبداية من عند صديقه سالم، وبعدها يحدد ما سيفعله وفق المستجدات.

ولأنه كان بحاجة للمال فقد انشغل قليلاً في عمله وسط انشغال مثنى وغيابه لفترات طويلة، كما أنه كان كثير السفر إلى عدن التي عادت للواجهة وسط القيادات السابقة بعد اعتكاف نائب الرئيس فيها ورفضه العودة إلى صنعاء، وقد كان يحاول استشفاف بعض الآراء من زملائه في العمل من مناطق صنعاء، لكنه لم يخرج بشيء مثير، فسوى التيار الديني تبقى آراء الناس بسيطة ومتواضعة في صنعاء، وكل مايدور هو في إطار الاختلاف السياسي المتدهور.

مع نهاية العام كان مختار يشعر بنفسه ناجحاً في صنعاء، فهو يملك منزلاً في حي جديد مليء بالفلل الراقية، وسيارة كبيرة ونصيباً في شركات صديقه سالم يسحب منه مايحتاج إليه بلا مشاكل، وزوجة تحبه، خصوصاً وهو ينتظر مولوده الأول منها الذي سيجعله يفكر ملياً فيما ينوي

فعله قبل القيام به.

مع غياب مثنى في عدن رفقة الكثير من المسؤولين الجنوبيين الذين رافقوا نائب الرئيس في اعتكافه، أصبح هو بمثابة وكيل الوزارة دون تعيين رسمي، وبدا أن الوزارة بأكملها تدعمه في عمله، وكل الموظفين سعيدون ببقائه معهم وسط الأزمة وانعدام الثقة بين المسؤولين من الحزبين الحاكمين أو الثلاثة الأحزاب الحاكمة بالأحرى، لهذا فقد كان على مختار أن يختار مابين البقاء في صنعاء أو الرحيل إلى عدن، ومع تجربته السيئة في كييف وفقدان كل شيء؛ قرر البقاء، لهذا عليه أن يؤسس لبقائه ويحمي نفسه، وكان صديقه سالم هو بوابة هذه الخطوة، لهذا فقد أصبح دائم الارتباط به، وزيارته في منزله أو في شركاته التي يتواجد بها، رغم انشغاله وغيابه الدائم، كما يبدو أن سالم قد استعاد روح الصداقة القديمة بينهما، فأصبح يتحدث بدون كتمان حول بعض الأمور السياسية في مجالس القات أو في اتصالاته، حتى جاء اليوم الذي دعاه فيه لتناول القات في أحد مجالس الشخصيات الكبيرة في الدولة، حينها لم يكن مختار يعرف تلك الشخصية، رغم أن سالم وصفه بالفندم.

كان المجلس مليئاً بالشخصيات السياسية التي تظهر على التلفاز، وعلى أوراق الصحف المهولة التي تصدر في

البلاد ، وكان معظمهم جنوبيين، وكان الجميع يتحدث عن السياسة وعن الأزمة والحلول، وكان الحديث في مجمله جيداً بما أنه يدور في العلن، ورغم وجود بعض المتعصبين أو المتملقين للفندم، إلا أن إجاباته كانت دبلوماسية، مع التأكيد على حماية الوحدة اليمنية، ورفض كل المؤامرات، وضرورة توحيد القوى لمواجهة المنهزمين كما وصفهم، وتأكيد المسار الديمقراطي الذي تنتهجه بلادنا مهما كانت المؤامرات الخارجية، واستمرت النقاشات لوقت طويل، مع استمرار تساقط أوراق القات من أفواه الجميع باستثناء سالم وبعض الحاضرين من أصحاب اللحى الذين كان حديثهم مرتكزاً على الجانب الديني من السياسة، بتوحيد كلمة المسلمين، ومواجهة الملحدين أعداء الإسلام بحد السيف، وأن جهادهم فرض عين على كل مسلم، وكان الجميع يتحدث بشكل عام، أو يطرح الأسئلة باستثناء شخص واحد كان يقف إلى من يسمى بالفندم، وقد كان يهمس إليه ببعض الكلمات فيرد عليه بكلمات قصيرة، ثم يعود إلى الصمت مجدداً ، فاقترب من سالم سائلاً إياه بصوت منخفض:

- سالم، من ذلك الشخص بجانب من يسمونه الفندم.

- من تقصد؟

- ذلك الرجل الهادئ.

أخذ سالم يضحك بصوت خفيض.

- لماذا تضحك؟

- لا شي، إنه أحد قيادات الزمرة الذين هربوا في حرب يناير، لكنه فعلا (هادي).

وعاد سالم يضحك مرة أخرى.

بقي مختار حائراً من إجابة صديقه، لكنه أيقن أن الأمور تسير في طريق التكتلات وكسب الولاءات، وأن الحرب بعيدة جداً، رغم التوتر والفوضى السياسيين.

بعد انتهاء المجلس نهض الجميع منصرفين بمن فيهم الرجل الهادئ الذي كانت ترافقه سيارات عديدة، وعند خروج مختار من المجلس، لاحظ وصول الكثير من السيارات التي نزل منها أشخاص ملتحون كانوا يسيرون بشكل منظم إلى داخل المجلس، إذ يبدو أن دورهم جاء للحديث مع الفندم، مر سرب الملتحين من أمامه وكان بعضهم يعرف سالم، فكانوا يلقون عليه السلام فيرد عليهم واحداً واحداً، وكان الجميع يتجاهلونه هو، خصوصاً أن كرة القات تملأ فمه، بل إن بعضهم كان ينظر إليه باشمئزاز.

- كيف سيجلسون مع الفندم وهو يأكل القات إذن؟ سأل مختار نفسه فبقي محتاراً، وظل واقفاً بجانب سالم حتى

انتبه إلى وجه أحد القادمين، إذ كان يبدو له أنه وجه مألوف يعرفه، لكنه لم يتذكر أين التقاه، هل التقاه في عدن، أم أنه أحد المراجعين للوزارة في صنعاء، لكنه كان متأكداً من معرفته له، خصوصاً حين رأى ذلك الشخص يشيح بوجهه جانباً، ثم يضع طرف العمامة فوق وجهه، وكأنه يحك بها أنفه، لكنه في الحقيقة كان يخفي وجهه عنه، إنه متأكد من ذلك.

- من هؤلاء الأشخاص؟

التفت إليه سالم يسأله، وبدوره بادله السؤال بأحسن منه مبتسماً:

- هل تتوقع مني الإجابة يا صديقي؟

- حقيقة، لا أتوقع، ولم أكن أريد سؤالك؛ لأني أعلم بأنك لن تجيب كما فعلت مع سؤالي عن الرجل الهادئ، لكني رأيت شخصاً أعرفه، وبدا لي أنه يخفي وجهه عني، لهذا سألتك.

كان سالم يهم بقول شيء ما، حينما التمعت عينا مختار وأخذ يهز ذراع صديقه قائلاً:

- نعم تذكرته، إنه زميلي حمود في كييف، لقد هرب حينها من الجامعة، وسمعنا أنه ذهب للجهاد في أفغانستان.

ظهرت بعض ملامح الدهشة على وجه سالم، لكنه لم

ينطق بأي كلمة، فعاد هو للسؤال:

- كيف وصل إلى هنا؟ وماذا يفعلون في الدخل مع الفندم؟

بقي سالم صامتاً دون كلام، بينما مختار مستمر في أسئلته:

- هل هؤلاء من المجاهدين الأفغان الذين عادوا إلى بلادنا؟ وماذا يفعلون مع الفندم؟ الذي أعرفه أنهم لا يرتبطون بالسياسة، فما هي أداة الربط بينهم وبين السياسيين؟ هل سيكون لهم دور سياسي؟ يا سالم، هناك أخبار عن ارتباطهم ببعض التفجيرات التي حصلت في عدن مثل تفجير فندق عدن وغيره من الأماكن.

اكتفى سالم بهز رأسه وإظهار اللامبالاة قبل أن يلتفت إليه وهو يقول:

- يقول الله تعالى في الآية 101 من سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور رحيم)، وكان بعضهم يسأل رسول الله صلى الله وعليه وسلم عن أمور دنيوية، فأنزل الله هذه الآية.

- لذا يا أخي في الله، قلة العلم بالأشياء تكون أحياناً جيدة للمسلم.

أيقن هو في قرارة نفسه أن الأمور أصبحت معقدة بشكل كبير، وأن القوم في السر غير القوم في العلن، لكن إدراكه

هذا لم يغير من قناعته بأمر البقاء في صنعاء، والحفاظ على كل مابناه وقام به، وأنه في الجانب الآمن، خصوصاً وأن بقاء الجنوبيين في صنعاء يعزز من دعايات المسؤولين في صنعاء بالوحدة والانفتاح على الآخر ورفض العنصرية.

وبعد مرور أيام ذهب مختار إلى المقر الرئيسي لحزب المؤتمر الشعبي العام، وأعلن انضمامه للمؤتمر، ووضع نفسه تحت خدمتهم بما يملكه من خبرة تنظيمية وحزبية، وكذلك في عمله بالوزارة، وقد رحبوا به، وشعر بسعادتهم لهذا الشيء، و أخبروه بأنهم سيضعونه في نفس مرتبته في حزبه السابق، وبنفس الامتيازات والوظائف الحزبية.

أما مثنى فقد أصبح تواصله معه قليل ونادر؛ لانشغاله هو بترتيب وضعه وبأعماله، بالإضافة إلى متاعب زوجته سناء من الحمل، وقد اقترحت عليه والدته بأن تذهب إلى منزل أهلها حتى يحين موعد ولادتها، وقد رحبت زوجته بالفكرة، لذا فقد قرر مختار السفر إلى عدن بعد وضع زوجته عند أهلها في ردفان، واقترح على والدته وشقيقته أخذ إجازة لمدة أسبوع في عدن حيث أنه قد مر وقت طويل لم يجلسوا معا.

في عدن، بدا له أن الصيف سيكون حاراً هذا العام، إذ بدأ مبكراً، ولا يدري إن كان هذا من تأثير شتاء صنعاء

القارس، أم أن الأمر كما يراه حقاً.

ظل لمدة يومين مع والدته وأخته أمينة في جولة سياحية في أرجاء عدن التي اشتاقوا إليها كثيراً، وفي اليوم الثالث قرر زيارة مثنى الذي كان بلا عمل حقيقي في عدن، سوى بعض الاجتماعات والزيارات مع المسؤولين الكبار الذين رافقوا نائب الرئيس في اعتكافه السياسي ورفضه العودة إلى صنعاء، وقد كان اللقاء في منزل مثنى وهو الذي كان متفائلاً رغم توتر الوضع السياسي فقال له مختار ممازحاً:

- مكتبك بانتظارك يا سيادة الوكيل.

- لن نعود إلى صنعاء إلا بتلبية كل شروطنا.

- وهل تظنهم سيوافقون على شرط تخلي الرئيس ونائبه عن السلطة؟

- بالتأكيد لا، الرئيس مهووس بالسلطة، ولن يتخلى عنها مهما كان، رئيسنا فقط الذي كان ساذجاً وسلم كل شيء، ولم يستمع لنصيحة أحد، بل إنه لم يستشر أحداً مطلقاً، وقام بوضع كل قواتنا ومعسكراتنا تحت رحمتهم.

- أعتقد أن هناك مبالغة في الأمر، فالجميع سعى للوحدة، والجميع تنازل عن أشياء كثيرة.

- يا صديقي، لا تصدق مايقوله المدسوسون والجواسيس في صنعاء، إذ يبدو أنك أصبحت متأثراً بهم، يجب عليك

البقاء في عدن حتى تعرف الحقيقة.

- جلست مع الناس، واستمعت للكثير من الآراء.

هناك خلل كبير في السابق ظهر جلياً بعد الوحدة، ولهذا، فأغلب الناس مع الوحدة، وغير مباليين بما يجري من خلافات، حتى ولو تعاطفوا قليلاً مع الاشتراكي بحكم الماضي.

- الناس جميعها معنا، ولدينا تقاريرنا، ومن ينقل إلينا طلبات الناس ليس في الجنوب فقط، بل في الشمال أيضاً، وغداً سترى بعينيك كيف ستقلب الطاولة على حلفاء صنعاء.

- أتمنى هذا حقاً، سأعود إلى صنعاء، وسيبقى مكانك محفوظاً حتى تعود، وإذا احتجت لشيء ما، اتصل بي مباشرة.

- ستكون العودة إلى صنعاء مختلفة يا عزيزي، عليك بالعودة، فعلينا بالمقابل ألا نضع بيضنا في سلة واحدة، إذا احتجت لأي شيء من عدن، اتصل بي.

تعانقا بحرارة كما التقيا، و لم يكونا يعلمان أن هذا هو اللقاء الأخير بينهما لسنوات طويلة، كان يود أن يصدق أستاذه كما كان دوماً، لكنه رأى في صنعاء أموراً لا يمكن تفسيرها بأنها سياسية مطلقاً، بينما الرفاق مشغولون بالماضي، ونرجسية القوة والحكم والأيدلوجيا التي لم تعد موجودة، كل ذلك انتهى حينما ذهب الرفاق إلى صنعاء،

فاندهشوا من الأشياء التي لم يكونوا حتى هم في السلطة يحلمون بها، لدرجة أن الناس يسخرون منهم بأن الرئيس استدرجهم بالبسكويت المتوفر في صنعاء، وهو كناية عن السلع والتجارة والاستيراد التي كانت محدودة، إن لم تكن معدومة في عدن.

في طريق عودته إلى صنعاء عرج على زوجته سناء في منزل أهلها، ووعدها بالعودة لزيارتها بعد أسبوعين للاطمئنان عليها في ظل عدم وجود خدمة الهاتف في المنطقة، وعند انصرافه أحس بالخوف لتركها، إلا أنه علل خوفه باشتياقه لها فهي المرة الأولى التي يفترق عنها منذ زواجه.

عاد إلى عمله بنهم كبير وهو يمني نفسه بأن يكون منصب الوكيل رسمياً من نصيبه، خاصة وأنه يقوم بأعمال المنصب منذ سفر أستاذه مثنى، وكان الجو لطيفاً في صنعاء آنذاك؛ لدرجة خيل إليه أن أهل صنعاء لا يفقهون بالسياسة مطلقاً، وحتى أن الكثير منهم كان متعاطفاً مع نائب الرئيس المنعزل في عدن، حتى فوجيء في أحد الأيام في منتصف الأسبوع بأحدهم يصرخ:

. لقد أشعلوها.

. أشعلوا الحرب.

لوهلة من الوقت، لم يكن مختار يدرك تغير المشهد أمامه

من مكاتب وشخصيات ترتدي الجاكتات والثياب البيضاء، ويتمنطقون بالجنابي في مكتب الوزارة في صنعاء، إلى أشخاص نائمون على فرشانهم في ردفان، وهناك من يصرخ:

- الرفاق في عدن أشعلوا الحرب.

هل وقع في فجوة زمنية مقدارها ثمان سنوات من الأوهام والسفر والطموح والحزن؟ هل عاد به الزمن إلى الوراء؟ ماذا يجري بحق الله في هذا الوطن؟ لم يخرج مختار من حالة التوهان إلا بعد أن أخذ أحدهم يهزه من كتفه وهو يسأله:

- مختار، مختار، هل أنت بخير؟

انتبه مذهولاً وهو ينظر إليه ببلاهة، ثم في وجوه الحاضرين، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة:

- من؟ أنا؟ تمام، لا، ماذا حدث؟

- يقولون بأن الحرب اشتعلت؟

- أين وكيف ومتى؟

- مازالت الأخبار غير واضحة، هناك من يتحدث عن مناوشات في ردفان عند ظهر اليوم، وبعضهم يقول في أبين وذمار.

- ردفان؟

- نعم.

اتسعت عيناه بقوة وهو يقفز من مكانه صارخاً:

- زوجتي هناك.

قفز من فوق مكتبه يجري بقوة إلى الخارج متجهاً إلى سالم الذي وجده بعد محاولات عديدة واتصالات على هاتف سيارته، وعندما التقاه أخذ يصرخ:

- ماذا حدث يا سالم؟

- يقولون بأن الحرب اندلعت.

- يقولون؟ أليس هذا ما كنتم تريدونه وتستعدون له.

- حاول أن تهدأ.

- كيف تريدني أن أهدأ وزوجتي في ردفان؟

- لا تقلق لن يتم قصف البيوت ولا المواطنين.

- المعسكرات داخل المدن، كل معسكرات الجمهورية شمالاً وجنوباً داخل المدن ووسط الأحياء السكنية.

قال وهو يصرخ ويدور حول نفسه:

- حاول أن تهدأ حتى أستطيع مساعدتك، سأجري اتصالاتي وأخبرك بما يجري.

- سوف أذهب لإخراج زوجتي.

- الذي أنا متأكد منه أن الطريق مقطوعة، لكن دعني أجري اتصالاتي.

غادر سالم، وبقي هو يفكر في زوجته وطفله القادم، وتمنى لو أن هناك هاتفاً كي يتصل بها ويطمئن عليها مباشرة، بعد ثلاثة عقود من عمر الثورة لم تستطع الدولة إدخال الهاتف إلى منطقة مجاورة للعاصمة عدن، فهل ستنتصر في الحرب؟ دولة مثل هذه تسقطها كلمة، ويدمرها الفكر والمعرفة، كيف كان مؤمناً بأن هذه الدولة كانت تنافس الدول العظمى، وأنها موئل الفكر التقدمي، وكل مافيها وضيع وتافه.

عاد صديقه سالم ليخبره بأن الطريق فعلاً مقطوعة بسبب المناوشات في أكثر من مكان على طول الطريق، والسفر من خلاله هو مغامرة محفوفة بالمخاطر وغير آمنة بالمرة، وطمأنه بأن الحرب ليست داخل المدن مطلقاً، كما أنه استأذنه بأنه سينشغل ولن يراه خلال الفترة الماضية، وأن عليه أن يهدأ، ولن يحدث شيء أسوأ مما حدث سابقاً لهذا الوطن.

ودع صديقه واستدار منصرفاً بانكسار فظيع، وحينما وصل إلى الباب استدار قائلاً له:

- اسمع يا صديقي، عندما تصل إلى عدن ستجد منزلك كما هو، لكنه باسمي حتى تعود، وأرجو أن تحافظ على منزلي بدورك، لقد أصبح من الإسمنت بطابقين ونوافذه

خضراء، فربما تكون نسيت الحارة مع السنين.

ابتسم سالم لصديقه وقال له بخبث:

- لا تقلق، لا أحد ينسى مكان خطواته الأولى، عندما أصل إلى عدن سأتصل عليك من داخل منزلك.

كان عليه أن يذهب لمواساة أمه وأخته في المنزل، وهناك استعادوا ذكريات «يناير» المشؤومة حين كان بعيداً عنهما، واليوم هو بعيد عن زوجته وطفله القادم، وكأن قدره أن يعيش الحروب في حرب الأحزان والقلق.

نام في تلك الليلة في حضن أمه على وقع محطات الإذاعة وهي تنقل أخبار الحرب بين الشركاء، وكأن العالم كله أصبح منشغلاً بأخبار اليمن ونقل أصوات القذائف إلى كل أذن، كل تفاصيل الحرب والمواقع والجبهات والمدن والمناطق التي لم يكن يعرفها من قبل، وكل تصريح من أفواه المسؤولين وقادة الجبهات لكن لا أحد ينقل له أخبار سناء.

طوال شهرين كان يداوم يومياً في مكتبه بالوزارة دون جديد، سوى بعض الاجتماعات التي أقامتها الحكومة لأبناء المحافظات الجنوبية في صنعاء، مع وفود يتم الإعلان عنها من مناطق جنوبية كثيرة، بينما في الوزارة كانت النقاشات

فـي أغلبها سـطحية، وتدور حـول الحرب نفسـها بمعزل عما كان قبلهـا مـن تداعيات وأحداث، كان هـو يعيش أحداثها وزخمهـا منذ ثمان سـنوات، فالنـاس في صنعـاء لا يملكون المـكان الذي يقـف فيه، وهو ما يمكنه من النظر إلى كل الزوايا.

فـي المسـاء كان يتجـول وسـط الإذاعـات العالمية التي كانـت تنقل أخبـار الجبهات ومعظمها كانـت في الجنوب، بالإضافة إلى بعض القنوات الفضائية القليلة التي دشنت نقلها في الوطن العربي، كان الوضع مقلقاً له بشـكل شـخصي، أما الوطن فلم يعد يشـكل أهمية له، هو الآن يعيش في وطن أكبر، أو نسخة متطورة عن ذلك الوطن الذي تربى به.

طـوال شـهرين كان الوضع عصيبـاً ومتوتـراً، زاده حجم الأخبـار وتدفـق وصولهـا مـن خـلال الصحـف والإذاعـات والتلفزيـون، دون أن يتمكـن مـن الوصـول إلـى زوجتـه أو صديقـه الـذي اختفـى منذ شـهر كامـل، ولم تفلـح عبارات المواسـاة والتطمين من والدته وأخته في التقليل من مشـاعره التي عاشـها سـابقاً لمرتين على الأقل في حياته، وبشكل لا إرادي تخيل نفسه يقبع في زنزانته في كييف وحيداً، ويشعر بالبرد والجوع، دون أي فكرة عما سيحدث له.

فـي بداية شـهر يوليـو، ذهب إلـى مقر عمله بجسـم مثقل

وأفكار عشوائية تملأ رأسه، وبمجرد وصوله إلى مكتبه بدأ يستعد لمراجعة الأوراق الروتينية التي كان يقوم بها يومياً في ظل خلو الوزارة من أي عمل حقيقي، فكل الجهود والميزانيات موجهة للحرب، فلا صوت يعلو على صوت الحرب إذا انطلقت، وبينما هو ينظر إلى الأوراق بعينين فارغتين، رن هاتفه الثابت على طاولة المكتب، ولم يكن يرغب بالرد على المكالمة، فتجاهلها لعدة ثوانٍ قبل أن يمسك بالسماعة أخيراً ويرد بصوت روتيني متعب:

- نعم، مكتب وكيل الوزارة.

- مختار، مختار، كنت أعرف أنك ستكون متواجداً في مكتبي.

فوجئ بصوت المتحدث الذي لم يكن سوى أستاذه مثنى الذي استمر بالحديث. لم أرغب بمكالمتك في منزلك، فربما يكون الهاتف مراقباً.

- تفضل أستاذي، أين أنت؟ هل أنت في صنعاء.

- أنا في عدن.

- كيف حالك؟

- اسمع لا وقت لدي لقول الكثير، ولكني أود إخبارك بأني كنت في ردفان قبل أسبوعين، ورأيت والد زوجتك وأخبرني بأنها بخير، وللأسف انسحبنا من الجبهات هناك

إلى عدن، ولن يطول الأمر قبل استسلامنا.

- لكن هل أنت بخير أستاذي.

- منذ اليوم أنت الأستاذ، أنت التلميذ الذي تفوق على أستاذه.

- هل تعني أن..

- نعم هزمنا، لن يطول الأمر قبل إعلان الأمر، وتبقت خيارات ضعيفة قد تلعبها القيادة المتواجدة في حضرموت لإعلان الدولة من المكلا، لكنها في كل الأحوال، تعني انتهاء الدولة والحزب بشكلها القديم إلى الأبد.

- وماذا ستفعل؟ هل ستعود إلى صنعاء؟ سوف أساعدك، وستعود لعملك ومكتبك.

- لا ياعزيزي، لقد انتهى كل شيء، سيقتلوننا إن ظفروا بنا، الجميع هنا يستعدون للهرب للدول المجاورة.

صمت مطبق من مختار، وهو لايدري بماذا يرد وقد اختلطت مشاعره، فلأول مرة يشعر بأنه مهزوم منذ بداية الحرب، لكنه قطع أفكاره وهو يسمع صوت مثنى وهو يناديه:

- مختار، هل تسمعني؟

- نعم، نعم، أسمعك.

- سوف أنهي المكالمة الآن، وقد أتمكن من مكالمتك في وقت لاحق، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء، إلى اللقاء.

لقد اختار أن يبقى في صنعاء، ولن يتراجع عن قراره، والقدر اختاره لكي يلعب هذا الدور الكبير، فهو المختار اسماً على مسمى.

كان حزيناً على أستاذه الذي كان يحدثه عن الاستفادة من زمن التحولات وخوض تجاربها، وهاهو اليوم يتفوق عليه، أما قادته السابقون فقد اختاروا الهزيمة بشكل سيء طوال سنوات تركوا فيها الشعارات والمبادئ أمام سطوة المال وأفخاخ السياسة، واليوم يقررون الهرب لدول الجوار التي كانوا يعلنون ليل نهار بأنها رجعية وعميلة ومتخلفة، وكان هذا أكثر شيء يحزنه في كل ما حدث له، يحزنه أنه صدقهم ذات يوم حتى وإن كان طفلاً، في حين كانوا يظنون بأنهم سيبقون في الأعلى، كان الوطن ينهار وهو يهوي إلى الأسفل.

وبما أنه اختار نفسه لهذا الدور فعليه أن يلعبه إلى النهاية، لهذا فقد اتجه مباشرة إلى مكتب الوزير لاطلاعه على فحوى المكالمة وماورد بها؛ خشية أن تكون الهواتف مراقبة، فحين يقرر المرء اللعب، عليه أن يلعب إلى النهاية وبكل

جدية، وبمجرد عودته من مكتب الوزير الذي كان سعيداً بالمكالمة، قام بالمرور على أحد المكاتب المجاورة وهو يقول لهم:

- لقد انتصرنا، هذا خبر حصري، كلها أيام وسيعلن الانتصار.

- من هو الذي انتصر نحن أم أنتم؟

شعر مختار بجبل كبير من الثلج يتساقط فوق جسمه حين سمع السؤال، وظل يفكر لثوانٍ بآلاف الاحتمالات وهي تنهال على عقله المنهك بضرباتها الموجعة، هل يصمت أم يتجاهل أم ماذا يفعل أمام هذا السؤال؟ لكنه في الأخير قرر أن يلعب دور الوطني المعتز بهويته وانتصاره وخبره الحصري فقال بغضب:

- ماهذا السؤال الغبي؟ نحن في صنعاء، وأبناء وطن واحد، وتسألني هذا السؤال؟ هل وصلت بك العنصرية والمناطقية إلى هذا المستوى الحقير حتى أصبحت لا تفكر أو تستخدم عقلك؟ أنت وأمثالك سبب هذه الحرب العبثية، أنت لا تقل سوءاً عن الانفصاليين الذي يريدون تقسيم الوطن، وسوف تهزمون أنت وأمثالك في صنعاء، كما ينهزمون حاليا في عدن.

حاول الجميع تهدئته، بمن فيهم الشخص صاحب السؤال،

بينما استمر بدور المتصنع للغضب حتى انتشر الخبر في عموم مبنى الوزارة، وأصبح هو نجم بارز ومثال عام للوطنية وحب الوطن والوحدة، ولم يستغرق الأمر كثيراً حتى وصلته دعوات كثيرة للقاء رئيس الجمهورية، ورئاسة المؤتمر الشعبي الحاكم، وحضور الندوات والمؤتمرات التي يتم تنظيمها في العاصمة؛ لترتيب الوضع السياسي بعد الحرب.

لم يمض أسبوع على مكالمة مثنى له حتى أعلن بشكل رسمي عن انتهاء الحرب، وانتصار الشرعية ودخولها المكلا وعدن في وقت متزامن، وكم كان سعيداً أنه شارك بجزء من النصر وإن كان صغيراً، لكنه مهم له لتعزيز اختياراته والاستفادة منها بقدر الإمكان، واليوم فقط تفوق التلميذ على أستاذه بالفعل.

ترى أين ذهب مثنى، وهل مايزال حياً؟ حتما سيبحث عنه وسيحاول مساعدته إن بقي في الوطن، وأين هو صديقه سالم الذي عاش مهووساً بالهزيمة ومرارتها؛ وهو يحقق الانتصار الأهم والأكبر ليس في حياته، بل في وطنه، حتى وإن كان بشكل شخصي ثأري، لكنه مهم في حياته.

- أتوقع أن يهاتفني ذلك الأحمق في أي وقت من عدن، لكي يعلن لي انتصاره وعودته لمنزله.

قالها مختار في نفسه بصوت عالٍ قبل أن يقرر العودة

للبيت لطمأنة أمه وشقيقته، والتفكير بموعد سفره لرؤية زوجته التي اشتاق إليها كثيراً، ولأول مرة أحس بحاجته لأنثى بجواره؛ أنثى يشاركها الانتصار وتذوقه؛ أنثى بحجم وطن يشعر بأنه شارك في صنعه؛ وطن سيحبه بكل تأكيد طالما سيجني ثمار صنعه.

وطن جديد بدأ للتو.

.ويتمنى ألا ينتهي، طالما أنه سيعمل بكل قوة لاستمراره، وجنى ثمار استمراره.

الفهرس

الإهداء ٣
باب الكوخ ٥
خارج الكوخ ١٣
أحلام تائهة ٢٣
الصدمة ٣٥
يناير ٨٦ ..... ٥٣
"سـالم".. ..... ٥٩
شتاء «كييف» ٧٩
مايو ١٩٩٠ ..... ١٥٩
جريمة الشرف ١٧٥
صنعاء العجوز التي لا تشيخ ١٩٧
الديمقراطية المُرَّة ٢٢٩